حسيبة طاهر جغيم

بُحيرة الرَّب

وقصص أخرى

٢٠١٧

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة
أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي
سماح الجمال

المدير الفني
أحمد جابر

تصميم الغلاف
حسين الشحات

التصميم الداخلى
وليد محمد

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠٠٢ -٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2016 م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2016 - 26693
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 28 - 2

الإهداء...

أهدي هذه المجموعة القصصية إلى أعز وأحب وأعظم رجل في الكون ×أبيييي ×

إلى أجمل وأحن وأطيب امرأة على وجه الأرض ×أمييييي ×

إلى كل معلم أو أستاذ علمني ولو حرفًا أو رقمًا .

حسيبة طاهر

امرأة من نار

ركن السيارة إلى ظِل شجرة في حافة الطريق، وأعاد قراءة الرسالة.. امتلأت عيناه بالدمع دون أن يذرف دمعة واحدة.. كيف يبكي؟ وقد تربَّى على أن الرجل لا يبكي.. فبكى ضَحِكا جنونيا لم يضحك مثله من قبل.. و بدأ يضرب المقود بكلتا يديه.. خائنة .. خائنة.. كاذبة.. ملعونة بنت ال... ما دخل أبيها؟ لم يستفق من هلاوسه إلَّا على صوت إصبع يدقّ على زجاج نافذة السيارة، رفع عينيه فإذا بالشرطي يقول له:

الوقـوف ممنـوع هنـا يـا سـيدي ألـم تـرَ الإشـارة؟

- آسف أنا أعمى يا سيدي.. أعمى...

قال الشرطي :أأنت مسطول ؟

-كنت مسطولا استفقت للتّو...هه ... هههههها... للتو...

..أدار المقـود، وانطلـق مذهـولا طـول الطريـق، لـم يسـتطع أن يتوقـف عـن مشـاهدة ذلـك الفيلـم الكوميـدي لحياتـه معهـا.... هـا هـو غـازي يخـرج مـن بـاب الوصـول بالمطـار الدولـي حامـلا حقيبـة سـوداء لامعـة، وحقيبـة رياضيـة «أديـداس».. منكـوش الشـعر كعادتـه.. لـم يتغيـر كثيـرا؛ وسـيم الملامـح، خفيـف الظـل، لطيـف الطبـع ..

تعانـق الرجـلان بحـرارة شـديدة.. تبـادلا أسـئلة كلاسـيكية لابـدَّ منهـا، ثـم ركبـا سـيارة «الميغـان» الرماديـة اللـون، فقـد كان يحـب اللـون الرمـادي.. ربمـا لأنـه لـون حياتـه الآتيـة والماضيـة معـا.. وانطلقـا إلـى بدايـة النهايـة .

قـال غـازي : أوصلنـي إلـى المحطـة، ومـن هنـاك سأسـتقل سـيارة أجـرة إلـى البلـدة....

لقـد تغيـرت كثيـرا يـا صديقـي! أنسـيت كـم سندويشًـا تقاسـمنا؟ أنسـيت أننـا كنـا نتنقّـل علـى دراجـةٍ يشـدُّ واحدنـا

قميـصَ الآخـرِ.. أ نسـيت ؟؟

– لا والله أنـت اليـوم ضيفـي.. ترتـاح مـن السـفر.. تتعـرف علـى يسـرا زوجتـي وتتـذوق أصنافهـا الشَّـهية

– هههـه مـا أحمقنـي لـم أكـن أدري أنـه سـيتذوقها هـي هـه هههههههـه.... ثـم أنـت أمانـة عنـدي إلـى أن أسـلمك لخالتـي «ونيسـة» غـدا إن شـاء الله، و لا تقلـق فقـد هاتفتهـا هـذا الصبـاحِ واتفقنـا علـى كل شـيءٍ، ووعدتنـي بـأن تعـدَ لِـي كَسْـرَةً

(خبزٌتقليـديٌ) مـن يديهـا و طَمِينَـة بالزُّبـدة الطبيعيـة (طمينـة هـي حلـوى جزائريـة تقليديـة)، أم تـراك مـا زلـت تَغـارُ مـن حبهـا لـي كعهـدِكَ القديـمِ.

(Ok).. و لكنَّنِـي لا أطيـق تأجيـل لقـاء أمـي للغـدِ، فالغربـة قاسـيةٌ يـا صَـاحْ!

لـم أعهـدك شـاعريا يـا صديقـي! أَوَ لـم تسْـعَ إلـى الهجـرة مـن أجـل الرُّبْـح السـريع تـاركا وراءك أبـا ينـازعُ، وأمًّـا أنـت بِكرهـا ووحيدهـا؟ وسـعاد التـي انتظرتـك طويـلا، ثـم استجابت لقدرهـا وتزوجـت المسـكينة ..!

أنـا آسـف يـا صديقـي لـم أنـوِ مضايَقتـكَ لكـن الماضِـي يجتاحنـا أحيانـا بـلا اسـتئذان.. الماضِـي لا يمـوت.. إنـه حـيٌّ

يـرزق في رؤوسـنا، فإمـا أن نتسـمَّمَ بذكرياتنـا ونقضِي مـع القاضِينَ وندفـن في قبـوِ الماضـي، أو نأخـذ لقـاحَ النسـيان، فـلا نَمـوت لكـن نظـلُّ حاملـين سـلبيين للمـرضِ، وعنـد كل إحبـاط نصـاب بحمَّـى نفسـية ونبـدأ بالهذيـان ...المهـمُّ الحمـد لله علـى سـلامتك.

كفـى ثرثـرة! أنـا لا أفهـم.. أأنـت طبيـب أم فيلسـوف ؟ امـضِ بنـا فمـا أحوجنـي لـ «دُشٍّ» يهـدِّئ أعصابي..

دق الجـرس.. فتحـت كمـن كان خلـف البـاب ينتظـر.. كانـت جميلـة كالحلـم.. لذيـذة كالحـب.. شـفافة كالوهـم.. ناعمـة كالحريـرِ.. تزينـت كعـروسٍ.. كليلـةِ عيـدٍ.. شـعرها غجـريٌّ مجنـونٌ عربيـدٌ متمـردٌ يَشـعُّ كالنـار.. كالشـمس وقـت الشـفقِ.. فسـتانها بـلا حـزامٍ.. لطالمـا كرهـت الأحزمـة، والأوشـحة والأربطـة والأغطيـة.. حتـى في عـز البـرد مـا كانـت تتدثـر، فلتكـن كمـا تشـاء.. المهّـم أنّهـا أمامـه حقيقـة.. واقعـا لا صـورة افتراضيـة خلـف شاشـة مـن زجـاجٍ .

قـال يعِّرفهمـا، ومـا كان يـدري أنهمـا قـدْ تعاَرفـاَ مـن وراءِ سـذاجتهِ وخداعـهِ : غـازي صديـق عمـري .. يسـرا زوجتـي، وأسـرتي وكل مالـي.

مـدّا يديـن إضطربتـا شـوقا.. ـ خجـلا ظنَّـه لِجهلـهِ ـ علقـت عيونهمـا شـوطَ دهـرٍ و تاهـا عـن الزَّمـكَانِ..

أهلاً ـ قالت ـ

تشرَّفنا ـ نَبسْ ـ ...

تـمّ التعـارف الكلاسـيكي، والترحيـب التقليـدي.. وظـلّ غـازي طـوال السـهرة يحكي عن حياتـه بكنـدا؛ عملـه.. عاداتهم.. أكلهلـم.. أعيادهم...عـن بعـض المصطلحـات الفرنسـية التـي تختلـف عـن فرنسـية فرنسـا... ثـم أخـرج قـارورة عطـر(سـيلين ديـون)، وقدّمهـا لهـا .

ـ شكرا ـ أومأت ـ

ثـم كتابًـا بعنوان-(الموجِّـه الكنـدي في التغذيـة الصِّحيـة) وقدمه لهـا.. احمـرت، وكادت تختنـق .. قـال : كيـف اخـترت لهـا هـذا الكتـاب بالـذّات؟

تلعثـم ثـم قـال :أنسيت أنـك أخبرتني أنهـا تقـوم بأبحـاث عـن علاقـة التغذيـة الصّحيـة ببعـض الأمـراض كالسـرطانات وأمـراض القلب؟

-ربما! لا أتذكر...،

- ثـم لا تكـن غيـورا هـذه هديتـك حقيبـة لا تليـق إلاّ بطبيـب ناجـح مثلـك .

آه كـم كان مغفـلا، كـم اسـتغلَّا حبـه لهمـا وثقتـه بهمـا، كـم

اعتبرَ غازي أكثر من أخٍ واستأمنه على زوجته، كم أحضره للغداء أو العشاء أو السّمر والسّهر.. كم كان كريما وسخيًّا ومعطاءً، كم كان الحاضر الغائب بينهما .. كم مرة تغامزا و تهامزا وهو اللاَّشيء بينهما.. كم مرة استغلاه واستباحا حقوقه.. كم مرة سلباه شرفه.. كبرياءه.. عنفوانَ رجولتهِ.. كم مرة ضحك الغباءُ من غبائهِ.. و رَثتْ السذاجة سذاجته.. كم مرة دمعتْ أعينُ القدرِ لِقدره وهومنتشٍ بينهما يضحك هزيمتهُ ..كم.. وكم ..؟ وهل من فائدة للعدِّ والتّعداد.. للتّذكر والرثَاء.. للبكاء؟!

استفاق من دهشته على «كلاكسون» قويٍ لشاحنة تقطع الشارع، انتبه فإذا هو في مدخل حيّه.. فكر أين يذهب؟ لمن يشكي همه؟ ما فائدة الشكوى ..؟ أدار المقود واتجه إلى بيت صديقه الآخر مراد ؛ مراد ذلك الشاب الرسام «الدونجوان» العابث الذي لطالما احتقر الحب، ولم يؤمن يوما بقيمة الإنسان...

ارتمى في أحضان صديقه باكيًّا منهارًا، دفعه الآخر بلطف متسائلا: ما خطبك يا صديقي؟ أ مات أحد؟

...أنا.. ماذا ؟..

لم ينطق.. أخرج الهاتف.. فتح الرسالة.. وناوله ليقرأ..:

الحياة بيننا قد انتهت يوم دخل بيننا.. فالأكرم أن تطلقني بلا مشاكل.. وسأعفيك من كل حقوقي.. أرجوك طلقنِّي.. فأنا أحبه.. أجل أحبه! إنه أول حب في حياتي.. ما كان بيننا لم يكن حبا.. كان مجرد رابط مقدسٍ.. ولا يجبُ تَدْنيسه بالخيانة..

أتريد أن تعرف من هو؟ إنه صديقك.. صديقكَ غازي! أجل غازي الذي أقحمته في حياتنا كطرف ثالث.. إنه غازي الذي علمتني أن أتهجى حبه حرفا حرفا.. وأعشق روحه قطرةً قطرَة.. بحبك له وإعجابك به ومدحك له بمناسبة أو بدون مناسبة ..

قرأ دون أن يفقه.. و فقه دون أن يقرأ..! شحب لونه وكادت روحه أن تزهق.. بدأ يصرخ غير عابئ بمن يستمع إليه: مجرمة خائنة.. آمنت بها بعد كفرٍ وإلحادٍ فخذلتني.. قالت إنها لم تحب رجلا قبلي.. ولن تعرفَ رجلا بعدي.. إني أنا هي.. وهي أنا وغيرنا عدم .. عدم..! قالت إنها لن تغادر يومًا حضني.. وإني كفنها وقبرها ودنياها وآخرتها.. ما أغبانِي..! أَوَ ليست الدقيقة عند النساء دهر..؟!

شَخَصَ الآخرُ في مكانه وقلبه يتصدّع.. كاد أن يحتضنه ويواسيه لكنه بعد أوانٍ انتبه أنه هو من كان يذبح .. شهق وما عاد يدري أَحيٌّ هو أم ميت.. وضع يده على اللوحة

الملتحفة بإزار أسود كي لا يقع، فأوقعها.. ووقع.. وقعتِ اللوحةُ وتعرَّتْ كاشفة عن جسد عارٍ.. عارٍ تمامًا.. عارٍ من كل شيء.. من كل شيء! جسدٌ مجسدٌ بإتقانِ وإمعانِ، من فيهِ سافرَ وأبحرَ.. حتى تلك الشّامةُ السوداءُ على أعلى الفخذ الأيسرِ لم تفلتْ..كانت.. كانت.. هي.. أجل هي.. هي عارية من كل زيفٍ.. من كل شيء إلّا..

إلاّ الخيانة.....

من يطفئ النار؟

دق الجـرس.. جـرى الأطفـال خارجيـن كمـن يفـر مـن السـجن.. أغلقـت البـاب وخرجـت مودعـة زميلاتهـا.. أمـام بـاب المدرسـة كان ينتظرهـا بطولـه الفـارع، ووجهـه الملائكـي، وابتسـامته الحبيبـة.. حياهـا وأخـذ يدهـا في حضـن يديـه، ومشـيا فرحيـن طائريـن كفراشـتين تزهـوان وتحتفيـان بالربيـع.. مشـيا غيـر عابئيـن بمـا.. وبمـن حولهمـا.. يجـران الحلـم، ويحتضنـان الحـب.. ويسـتجديان الأمـل..

جلسا تحت التينة التي اعتادت قدومهما، وتسمّعت إلى كلامهما ولطالما انتشت واستأنست بهما.. افترشا السندس وتغطيا بالسديم.. تغازلا.. تلاعبا.. جريا.. و في نشوة الحب وسكراته التحما.. تهامسا.. وتاها عن الكون والملكوت، وكانت الخطيئة رابعهما، والتينة شهيد إثمهما..

..شهقت.. بكت.. حاولت عبثا لملمة شظاياها، فالعطر زيوته طيارة.. قال: لا تحزني حبيبتي، فأنت لي وأنا لك، أم نسيت أن فاتحتنا قد قُرأت على فم شيخ المسجد، و شهد عليها الحبر الأكبر! لا خطيئة لنا.. لا ذنب.. لا وزر.. لن يحاسبنا الله، ولا يسوع.. سيجرّمنا الطابو، ويحاسبنا الطوطم القبلي، ويحاكمنا الصنم العرفي الرجعي المتقوقع، ويعدمنا مجتمع متربص بالعشاق.. بالأطفال.. بالأحرار.. بالأخيار.. مجتمع متخصص بتلفيق التهم، وتلبيس الفضائح، وتشخيص الخبايا.. مجتمع يحرم عليك حتى الحلم.. يسقطك في السقط رغما عن عفتك.. ينعتك بالعهر وهو مؤمن بشرفك.. لكنني رجل بهامة «قاسيون»، بعفة «عنترة»، وكبرياء «الشنفرى»، ولن أترك للمتربصين إلا البطالة.. فليبحثوا عن فريسة أخرى بعيدا عنا، والموعد المؤجل سيعجّل، وغدا تأتيك مني الأنباء سرب فرح في موعده المنتظر، فعودي إلى بيتك، وانتظريني.. وإن تنفست تنفسيني، وعند كل رمشة عين أذكريني.. سألبسك

البياض وأوشّحك الزهر وأحملك إلى مملكتي لتكوني بلقيس عمري، وفي حضنك أختم عمري.. قالت: لكنها الحرب ،وأنا أنزف.. والوطن ينزف.

قال: في الحرب نحن أحوج للملمة الشمل.. للاحتماء بالحب.. للتدفؤ بالمشاعر، سنتزوج وسنشهد الدمار على حبنا.. ونزين بالركام عرسنا، ونُشيّعُ بزغاريد المدافع، وتصفيق القنابل.. وتزفنا القناصة إلى عشنا.. سنكون أقوى وأسعد.. ويوما ما سنفخر بانتصارنا، وسنروي لأحفادنا حكاية حب وسط الركام أزهر.

دبت في البيت حركة غير عادية.. إنه التجهيز للعرس.. روائح الكعك والحلوى تنبعث من كل ركن.. المزهريات والتحف الجديدة تحتل الصدارة في الصالون.. علت الزغاريد والأغاني السعيدة.. جلست أميرة بيضاء متوجة بالورد والزهر.. معطرة بالعنبر.. تشرئب الأعناق لترى محياها الذي ازداد جمالا و بهاء وحياء وهاجا..

ارتفع صوت الغناء والطرب حتى لامس السحب وعانق الأفق .. تمايلت النسوة في الداخل، والحمام على السطح، لعلعت الزغاريد وزقزقت العصافير.. رقصت «السندريلا».. لكن دون أمير.. طال الوقت وتمدد، والمنتظر لم يحضر..

غـاب الحضـور.. وغـاب الغيـاب، و في لحظـة دوي انفجـار معهـود.. غطـى الصيـاح علـى الغنـاء، والعويـل علـى الفـرح.. تسـابقت الأرواح باحثة عـن النجاة.. مبعوثة بفطرة حب البقاء.. أمـا هـي فكانـت تجـر ثوبهـا المخملـي وتجـري..

ركضـت وسـط الـركام والغبـار والدمـار والهـدم والـردم.. وسـط روائـح الحريـق والدخـان الأسـود إلـى أن وصلـت إلـى بيتـه.. لـم يعـد بيتـا بـل كومـة تـراب وقطـع إسـمنت.. بكـت.. صرخـت.. جلسـت تنتحـب و تسـتجدي الحيـاة مـن المـوت ..

اسـتفاقت فـإذا هـي بغرفـة رماديـة اللـون.. نزعـت أنبـوب المصـل مـن ذراعهـا وهرولـت تجـري.. وتجـري إلـى أن وصلـت إلـى التينـة، هـذه المـرة لـم تـأتِ لموعـد، و إنمـا لتقتفـي أثـره في الـتراب والطيـن والـورق المتناثـر، لكـن لا أثـر.. وظلـت كل يـوم وفي نفـس الموعـد تذهـب إلـى التينـة وتسـألها هـل حضـر..؟ والتينـة تحـرك أغصانهـا يمينـا وشـمالا..

ذات ذهـاب وجـدت أن الحـرب لـم تهـدم البيـوت، ولـم تقتـل الحلـم فقـط، بـل طالـت حتـى الشـجر والحجـر، وكانـت التينـة تحـترق ولا مـن يطفـئ نارهـا.. فمـن يطفـئ نارهـا ..مـن ؟؟

من الإيكوِس إلى الأوراق

هذه قصتي أنا فلا تسألوني ما نوعها... قصيرة.. طويلة.. ومضة.. لست أدري.. ولا أريد أن أدري.. لا يهمني نوعها.. حجمها.. شكلها.. مدرستها.. واقعية.. سريالية.. لا يهم، المهم صدقها!

صادقة هي لأنها أنا.. أنا التي تهت بين تشريق وتغريب.. بين شمال بعيد وجنوب أبعد.. بين ماض آت.. و حاضر غاب.. كنت أقرأ.. أقرأ.. أقرأ.. و كالجاحظ تحت الكتب

أدفـن.. كان الكتـاب صديقـي وعشـيقي وأنيسـي.. كان لعبـة طفولتـي ومصاصتـي ومشـروع حصالتـي وعيديتـي.. وكنـت أكتب في صومعتي وأهمل مسوداتي حتى يغطيها الغبار المنسي في رف عتيق من خزانتي.. حتى يأكل عليها الدهر و يشرب، فتصير هباء منثورا بنات أفكاري.

كم من ليلة أرقت فيها و جافاني النوم، فيجيء المَلَك بالوحي والإلهام.. أسرد في صمت وسكون إلهامي وتراتيلي.. أخشع في الظلماء، وأستمع لهاتفي.. لدقات خافقي، وما بين غفوة اليقظة وصحوة النوم أسهو وأستفيق وقد نسيت كل ما قلتُ، وكلما فكرت في تدوين ونسخ ضحكت مني نفسي وقالت: أنت مجرد سمكة صغيرة في محيط كبير عميق رواده قروش وحيتان.. نازك ونزار.. نجيب وجبران .. غادة وأحلام.. فأستتفه فكرتي، وأدخل في سبات فكري ناسية أني كنت أفْصَح بني صفي، وأنبههم وأذكاهم.. و...

ذات هجرة مضيت إلى المجهول أجر أحلامي وأوهامي.. أسحب نجاحاتي وانكساراتي.. تسع سنين عجاف مضت بي ما حملت بين يدي إلا القليل من الكتب ، واستساغ لساني (وي) و(يس) و(أوكي) و(باي)، وأغاني «سلين ديون» و«الدركشن وان»..

أناملي قاطعت اليراع واستحبت عد «الدولار»، واكتفت

بتقشير الثوم والخيار، وإن أبدعت ففطائر أمريكية محشوة بشراب القيقب (ليغابل) أو كاتُّو فروماج ..إلى أن استفقت يوما من غيبوبتي، وضحك الغباء من غبائي.. ما لي أراني ساكنة والكون في حراك؟ أرض تدور.. شعوب تثور.. صغار تكبر.. غلمان تبدع وتنشر.. ما فائدة فكر عقيم لا ينتج؟ هل سأظل كالتينة الحمقاء حتى أقبر، و كلما فات عمر أندم ؟

نفخ في روح أفكاري فتمردت وثارت.. تحررت.. طارت وغردت.. تسألني متى؟ أجيبك: يوم قرأتك حسدتك، أحرجتك بتعرية أخطائك ونقد أفكارك.. صرت أغار منك، ومن كل من يكتب ويجد من يقرأ له.. من يومها كلما كتبتَ أنت فكرة تهاطلت عليَ الأفكار، لكن آسفة أنا لا يمكنني أن أقول أنك كنت ملهمي، ففي وطني وعرفي عيب أن يكون للمرأة إلهام.. ثم خلعتك ولِبستُنيَ وتحررت من مجاراة أفكارك ومن عقدة كونك ملهمي.. صرت أدوّن كل ما لا أحس.. وما أحس.. أرسم بالكلمات، وألِون جدران معبدي و قبو صومعتي.. أنحت الكلمات أيقونات وتماثيل، وأنفخ فيها من روحي، وأسقيها بدمي ودموعي.. فتغدوا تواشيح وتراتيل من حنايا عمري الآتي، والذي انقضى.. يقف لها السامع خاشعا كالصلاة.. أُخرِج من ذاتي أساطير الإنسان الأول، وغدت كلماتي طيورا مهاجرة من «الإكوِس» إلى «الأوراس»..

سفيرة لي بوطني تحمل لكم هناك سلامي، وتبثكم أشواقي..

رجاء يا كلماتي اعبري ذلك الشارع، وعرِّجي على ذلك المنزل، واطبعي على جبين أمي قبلة علّها تشم ريحي.. وألقي بنفسك في حضن أبي علّه يسمع صوتي الحزين الذي يملؤه الحنين، وألقي نظرة على الزرع والشجر و خبريني هل تزينت العذارى للربيع ؟ وهل ما زال الفراش الملون يطير؟ هل ما زال للماء خرير؟ وهل ما زال الديك عند الفجر يصيح؟ خبرني..! هل أزهرت نباتات الزعتر؟ وشممييني عبق الأقحوان وأريج العنبر.. خبريني عن أغاني الطيور وصفير الصرصور.. عن الباعة المتجولين.. عن ألعاب الأطفال وشعرهم المنكوش.. عن رائحة الكسكس وقت السحور.. عن رائحة التراب الممزوج بأولى قطرات المطر.. عن السهر.. عن السمر.. عن النكت.. عن جنون الضحك. عن.. .

السفر إلى الهاوية

انسلت من تحت اللحاف.. تسللت إلى الصالون حاملة جهاز اللابتوب.. ارتمت على الأريكة الباهتة الباردة.. قرأت رسالته للمرة العاشرة.. أو المائة وواحد، فما عادت تدري.. احضري أو غيبي أبدا..

ظلت ساهمة تفكر، فهي لو حضرت ستغيب، ولو غابت ستحضر فما العمل؟

ربطت جأشها، ووضعت ماضيها في الجانب الأيسر

للـروح.. ارتـدت الحـب، وانتعلـت الحلـم، وضعـت قليـلا مـن الأحمر على وجنتيها وشفتيها، فلا وقت لديها لأكثر.. حملت حقيبة تحوي ثيابا قليلة، وكتبا كثيرة، وألبوم صور.. استرقت النظر إلى ذلك المُلقى على السرير، الموثّق: « آسفة »!

ألقـت نظـرة علـى طاولـة الإفطـار.. منسـقة كالعـادة: إبريـق حليـب.. إبريـق قهـوة.. خبـز محمـص.. صحـن حلـوى مربـى وجبـن وزبـدة الفـول السـوداني وكعكـه المفضـل الـذي أعدتـه لـه بنفسـها، و في الركـن أزهـار جميلة المنظر، عاقر لا تفـوح بعطر.. كل شـيء هـادئ وعـادي.. كل شـيء هنـا إلاهـي فلـن تكـون ..!

أسـرعت الخطـى خارجـا.. صفقـت البـاب فمـا يهـم، فهـي الخطـوة التـي ليـس منهـا رجـوع .

نزلـت الـدرج مسـرعة، فالحـب في السـيارة ينتظـر، والـزوج علـى السـرير يُحتضـر، اندسـت في المقعـد.. صفقـت البـاب.. نظـرت إليـه.. لـم يسـتقبلها كمـا توقعـت.. كلامـه خافـت، ولونـه باهـت.. سـيجارة تحـرق شـفتيه.. كانـت السـاعة عنـده الرابعـة صباحـا، ومشـروع نـدم ، كانـت عندهـاا لرابعـة إلا عـودة، والثالثـة.. وأمـل.

قال الحب: مرهق أنا.. فقودي أنت!

في صمـت تبـادلا الأماكـن.. عينـاه تفـران منهـا كلمـا إليـه

نظرت.. قالت: إلى أين؟ قال: إلى المصير .. داست البنزين وانطلقت إلى اللاأين .. كان الحب كعادته جميلا مهندما عطرا، لكن حركاته اليوم غير متزنة.. نظراته هاربة منكسرة شاردة.. كلامه ضئيل.. مزاجه غريب ..

كانت السيارة تجري هاربة نحو الماضي.. سالكة شارع الوهم المجهول، قالت: إلى أين المسير ؟

قال: إنه الآن يبكي ويبحث عني.. مسكين ذلك الصغير لن يحاول عضي بعد اليوم.. لن يلامس خدي.. سيبكي كثيرا.. مسكين.. يستحق أبا أفضل مني بكثير..

قالت: مسكين! هو سيفطر وحيدا، وينام فريدا، ويعيش سقيما.. لن يبكي.. لن يبحث عني عصي الدمع.. هو عزيز النفْس، كاتم النَّفَسِ.. قهرته أنا، ضمرته لأنه فقط أحبني، أهنته.. قلصت هامته لأنه فقط أكرمني.. ما أغباني.. وما أجبنني..!

قال: حزينتان هما.. ستمضيان عاريتان والبرد شديد.. ستهانان بذنبي، وتشتمان وتنبذان بلا ذنب.. ستهجران وتعيّران.. سأبقى في حياتهما وصمة عار، و أبا مستعارا.. عربيدا.. شريدا بلا قرار..

قالت: أمي سترثيني.. ستبكيني دهرا.. ستُلقى في مزبلة

المجتمع، أبي سيحزن.. سينزف دما.. أخي سيدفع عني الثمن.. سيتهامز القوم و يتغامزون.. سيتحدثون عن أخته التي تقاطرت عهرا، وتهاطلت أخبارها ظهرا و عِشاء وعصرا..

قال: مسكينة هي.. ستجرح كرامتها التي ظلت قلادة في عنقها دهرا وشطر دهر.. سأحطم عنفوانها وكبرياءها.. امرأة هي لا تقهر.. ستملأ الأخاديد وجهها الجميل، و قلبها الضعيف، وحسها الرهيف... عليَّ اللعنة من نرجسي أناني متجبر..! ماجن أنا وسخيف لا أستحق حتى العيش..

قالت في ذهول من استيقظ لتوه: أهو الندم؟ أبعد عامين من الحب وآلاف القبل..؟ أبعد أن تمردتُ على كل القيم، و غدا اسمي كأس سم تدور على شفاه الذين لي؟ أبعد أن ضحيت بكل ما سيكون، و ما قد كان..؟ أ بعد..؟ وبعد..؟ وبعد..؟ أتتحدث عن الندم ..!

قال: فلنشفَ من هذا الجنون، ولنرتقِ عن هذا المجون، ولْنَعُد..

قالت: أنت أعلم مني أن عودتي مستحيلة، فأنا البارحة عاهرة وحقيرة ودمي مهدور.. واليوم دفنت في مقبرة النسيان المحظور، وروحي لا تجوز عليها لا رحمة ولا صلاة، وإننا اليوم غدا... فهل الموتى يعودون ..؟ و إن عادوا هل يقْبلون..؟

و في لحظة لم تُنتظر أدارت المقود بجنون، فارتطمت السيارة بالحافة المعدنية للطريق، وانحدرت متدحرجة عبر سفح الجبل، واستقرت في جوف الهوة السحيقة للأبد..

كارولينْ تقررُ الحياة

كانتْ تداعبُ جسدهَا تحتَ الماءِ الدّافئِ مدندنةً بأغنيَةِ «حكايةَ حياتي» للـ(أُنْ دريكشنْ) عندمَا رنَّ الهاتفُ، ثم سمعتْ أحدهمْ يتركُ لهاَ رسالةً: هنَا عيادةُ الدكتورْ (بورجو) يجبُ أنْ تعاودِي الاتصالَ بنَا فِي أقربِ وقتٍ.. نهارٌ سعيدٌ.

أسرعت بشطفِ الصابونِ عنْ جسدَهَا، والتفّتْ بفوطةِ الحمامِ.. أدارت الرقمَ.. اللعنة! إنهُ المجيبُ الآليّ.. تنبهتْ للساعةِ، فإذا هي الحاديةَ عشرَ والنصف صباحًا.. إنهُ وقتُ

الغـداءِ.. يجـبُ أن تنتظـرَ إلـى الواحـدةِ .

ارتـدت ملابسَـهَا، وظلـتْ قلقـةً تذهَـبُ وتجيء.. هـذهِ ثالـثُ سيجارةٍ تحرقُهَـا.. هـي متوتـرةٌ منـذُ أكثرَ مـنْ شـهرين، فقـدْ كانـتْ تعَانِـي مـنْ صـداعٍ شـديدٍ منـذُ مـدةَ يحرمُهَـا النـومَ ليـلاً، وقـدْ زارتْ طبيـبَ العائلـةِ عـدةَ مـرّاتٍ، ولـمْ تَنفَـعْ معهـا أيُّ مسـكنَّاتٍ.. لـذا في آخـر زيـارةٍ قـررَّ إرسـالهاَ لمختـصٍ فِـي الأعصـابِ والدمـاغِ، هـذا الأخير طلـبَ منهـاَ إجراء فحوصـاتٍ خاصـة وأشـعّة، و هـي تنتظـرُ النتيجـةَ منـذُ شـهرينِ كمـاَ هـو حـالُ كلِّ المرضَـى فِي هـذهِ المدينةِ(مونتريـالْ)..

جلسـتْ إلـى االطّاولـةِ.. أكلـتْ قليـلاً مـنْ ذلـكَ السـندويشِ الـذي أعدّتـهُ سـابقـًا.. لكنهَـا لـمْ تتمكـنْ مـنْ ابتلاعـهِ لأنّ ريقهَـا أصبـحَ ناشـفًا.. ناشـفًا جـدًا.. اكتفَـتْ بالقليـل مـن عصيـرِ التّفـاحِ، ونهضـتْ.. ظلّـتْ تقتلُ الوقـتَ، فيـزدادُ مقاومـةً.. أووفْ ! أخيـرا هـا هـي السّـاعةُ الواحـدةُ تمامـًا..

شـكّلتِ الرّقـمَ علَـى عجـلٍ ووجـل.. مَـا هـذاَ الحـظِّ؟! إنّـهُ مشـغولٌ! أعـادت الكـرة.. «ألـوً ممكـنْ أكلِّـمُ الدكتـور (بوغجـو) مـن فضلـكِ سـيدتِي؟

-منْ معِي؟

-كارولينْ.. أنا كارولينْ براسَا

-آ آه.. بخصوصِ نتائجكِ الطبِّيةَ؟

-أجلْ!

كانَ قلبُهَا يدقُّ بشدة، وأطرافُهَا ترتعشُ كأنَّ كهرباءً سرتْ بها.. كانتْ تنتظرُ حاملةً السمَّاعةَ في يدهَا..

سعداءٌ باتصالكمُ.. لا تغلقوا الخطَّ حفاظا على أولويَّةِ المكالمةِ... سعداءٌ باتصالكمُ لا تغلقوا الخطَّ حفاظا على أولويَّةِ المكالمةِ...

يا إلاهي! كمْ هو صعبٌ وممـلٌ الانتظارُ.! و مَا أطولَ لحظاتهِ! فالزَّمنُ لا يقاسُ بالدقائقِ والسَّاعاتِ، بلْ بمزاجنَا، لذا فزمنُ الانتظارِ يتضاعفُ بمتتاليّةٍ هندسيةٍ، ويمرُّ ثقيلاً..

أخيييييييييرا جاءَ صوتُ الطبيبِ :

-مساءُ الخيرِ آنسةَ كارولينْ براسَا.

-مساءُ الخيرِ سيّدي.

-اسمعينِي جيدًا؛ ملفكِّ أمامِي وكلُّ الأشعةِ والتحاليلِ تثبتُ وجودَ ورَمٍ ضخمٍ بالدّماغِ...

-ماذا ..؟ أ....أ.... سرطانٌ؟

-أجلْ! للأسفِ.

بدأتْ تبكِي..

-كمْ بقي لي منَ الزّمنِ؟

-آنستي! أولا توقفِي عنِ البكاءِ، لأنَّ الحزنَ و الاكتئاب عواملٌ تزيدُ من نشاطِ الورمِ، وأنتِ مقبلةٌ على فترةٍ قاسيةٍ..

الألـمُ سيشـتدُّ، وسـتنتابكِ نوبـاتُ صَـرَعٍ، وتشـنجاتٍ، و عمـى...

-عمى؟

-أجـلْ لـذا خـذي موعـدًا قريبـا لبـدء العـلاجِ.. أمّـا التدخـلُّ الجراحـيُّ فمغامـرة لا طائـل منهَـا فِـي حالتـكِ، و إذا لـم يكـنْ لديـكِ مرافـقٌ في البيـتِ، اتصلِـي بمركـزِ الخدمـاتِ الاجتماعيـةِ لحيّـكِ، وسـيعيّنونَ لـكِ ممرضـة مختصـة في مرافقـةِ المرضَـى في آخـرِ أيامهـمُ.. معـذرةً! مضطـر لقطـعِ الخـطِّ لضيـقِ الوقـتِ.. كـوني قويـةً..

تن.. تن.. تن.....

تبًـا لأطبـاءِ (كيوبـاكْ)! يحدثونـك عـن مـرض السـرّطانِ وكأنهـم يتحدثـون عـن تسـوس الأسـنان!

اشـتعلتْ النّـارُ في صدرهـا، وسـرى التّنمـلُ في أطرافهـا، وانهـارتْ متهاويـةً علـى الأريكـةِ السـوداءِ .

اجتاحَهَـا ماضيهَـا المُثْقـلُ بـالآلامِ والرهبـةِ، ذلـك الماضِـي الـذي ظلـتْ حبيسـتهُ إلـى اليَـوم، لـنْ تَنسـى مـا كابدتـهُ أمّهَـا مـنْ آلآمِ السـرطانِ، إذْ كانـتْ تقضِـي الليالـي باكيـةً صارخـة منَ الألـمِ، وكـمْ مـن مـرّةً انتابتهـا نوبـاتُ الصّـرَعِ فتهـاوتْ علـى أيِّ شـيءٍ و جُرحـتْ، وعندَمـا بـدأت العـلاج الكيميائِـي تسـاقطَ شـعرُهاَ وبـرزتْ عظمتـيْ خدّيهَـا حتـى غـدت كيـس عظـام، فهجرهَـا أبوهَـا وانتقـل للعيـشِ مـع صدِيقتـهِ، وظلـتْ هـي تعانِـي اليتـمَ،

وأمها تصارعُ المرضَ وحيدةً فِي وقتٍ كانتّ في أمسِّ الحاجةِ لشريكٍ، وفي أواخرِ أيامها ازدادَتْ حالتهَا تدهورا، إذ أصبحتْ تقضِي حاجتهَا في السّرِيرِ فاضطروا لإدخالها إلى المشفَى، وحين ماتت لمْ يطالبْ أحدٌ بجثّتهَّا كبقيةِ الجثثِ المتراكمةِ في المشافي الكندية.. أما هي، فكانَ مصيرُها ملجأ لرعايةِ الأيتام، حيثُ كانتْ لا تلعب، بل تبقَى وحيدةً تفكّرُ فِي ماضيهَا.. متوترة نتيجةَ خوفهاَ من أن تصابَ بذلك المرضِ الخبيثِ ويكونُ مصيرهاَ كمصيرِ أمّهَا المسكينةَ..

كانتِ الفكرةُ ترعبهَا وتسيطرُ عليها ليلَ نهارٍ، فتستيقظ من نومها فارةً صارخةً ، مما اضطرهم لوضعهَا في غرفةٍ انفرادية لمنعِ الضّررِ عن زميلاتهاَ، ولهذا السبب أيضا هي لم تنجبْ رغمَ أنّها جاوزتِ الثلاثينَ.. فهي لا تريدُ أنْ تتركَ طفلا وحيدا يتربى في الملجأ وقدْ يصابُ بنفسِ المرضِ.. يجبُ ألاَّ يحدُثَ هذا.. لن تنتظرَ ذلكَ.. لنْ تنتظرَ! ثمَّ لِمَ تنتظر العذاب وتتألم وتعانِي، ثمَّ تموتُ..؟! فلتمُت الآنَ أحسَنُ.. ولْترتح.. أجلْ! لنْ تنتظِر.. فهذا قرارٌ.. هو ربَّما أولُ قرارٍ في حياتها التي لمْ تختَرْ منها شيئًا؛ لا وجودهَا.. لا أمهَا.. لا أباهاَ.. لا اسمهَا.. حتى الوظيفة لم تخترهاَ، قبلتْ بهَا مرْغمةً لأنهَا لمْ تُقبلْ في غيرهَا، والشُّقةُ التِي تسكنهَا لم تخترهَا بلْ أخذتهَا لزُهدِ ثمنهَا.. صديقُهَا لم تخترهُ بلْ قبلتْ بهِ لأنَّهُ الوحيد الذِّي طلبَهَا.. وفي صغرهَا ما كانتْ تختارُ وجبتهَا ولا لُمجتها ولا فستانها ولا لعبتها، وهي اليومَ لمْ تختَر المرضَ بلْ هو منْ

اختارهـا، وعشَّشَ في رأسـهَا؛ إذن إن لـمْ تكـنْ قـادرةً علَى اختيـارِ الحيـاةِ، فسـتختارُ المـوتَ ..الآنَ قـدْ قـرّرتِ المـوتَ.. بقـي فقـط أن تختـارَ الوسـيلة!.

أجـل! أولُّ مـرّةٍ في حياتهَـا سـتكونُ لهـا حريّـةُ الاختيـارِ والمفاضلـةِ : أممممْ.. أتضـرِمَ النـارَ في الشـقة؟ لا.. لا! سـتؤذي جيرانهَا.. أتطلـقُ الرصـاصَ علـى نفسـها؟ أووووه! منْ أينَ سـتأتِي بمسـدَّسٍ؟ أتقطـعُ شـرايينهَا، أو ترمِـي بنفسِـهَا مـن الشـرفةِ؟ إنهَّـا أجبـنُ مـنْ أنْ تفعـلَ ذلـكَ! أتلقِي بنفسـهَا فِي نهـر(السَّـانْ لـورونْ) وتغـرق؟ لكـنَّ الفصـلَ شـتاءٌ و»السّـانْ» متجمـدٌّ.. أتلقِـي بنفسـهَا تحـتَ عجـلاتِ الميـترو؟ لكنهـا لا تريـدُ جمهـورًا ومتفرجيـنَ.. إذن هـو الـدواءُ.. الـدواء طريقـةٌ حضاريّـةٌ ومسـالمةٌ للمـوتِ..!

أخـذَتْ قـارورةَ المنـوِّم، ثـمَّ بـدأتْ تتنـاولُ حبـةً تلـو حبـةً.. لا! سـتتناولُ العلبَـة دفعـةً واحـدةً كـيْ يكـونَ المفعـول أكيـدا، فلـو تناولـتْ حبـةً.. حبـةً قـدْ تضعـفُ وتتراجـع.. فتحـتْ فمهَـا وابتلعـتْ العشـرينَ حبـة المتبقيـة فيهَـا.

بقيـتْ جالسـةً تنتظرُ المـوتَ.. تُـرى مـا هـو المـوتُ؟ هلْ هـو شـيءٌ مـا أمْ لا شـيء؟ أكيـد بعـدَ قليـلٍ سـتؤلمها معدّتهَـا ويُغمَـى عليهَـا، ثـمَّ تمـوت..!

تُـرى مـنْ سيكتشِـف جثتّهَـا؟ أم أنهـا سـتتعفن؟ هـل سـيحزَنُ (سـثيفان) صديقُهَـا أمْ لا؟ هـل سـتقابلُ أمهَّـا هنـاكَ كمـا تقـولُ الكنيسـة؟ وإنْ كانَ؛ كيـفَ سـيكونُ لقاؤهمـا؟ وهـلْ سـتعرفهَا

وقـدْ تركتهـا في السّـابعةِ مـنْ العمـرِ؟ وهـلْ سـتلومهَا أمهَّـا علـى فعلتهـا..؟ المضحـكُ أنَّ أمَّهَـا قـد توفيـتْ في الثّامنـةِ والعشـرينَ من عمرهـا، وهـي الآنَ في الخامسـةِ والثلاثيـنَ.. سـتكونُ أمُّهَـا أصغـرَ منهَـا..! لِـمَ سـترهقُ نفسـهَا بالتسـاؤلاتِ، فبعـد قليلٍ سـتعرفُ كلَّ شـيء..؟

رنَّ الهاتـفُ.. لـنْ تجيـبَ.. لمـاذا تجيـبُ وهـي لـمْ تعـد مـن هـذا العالـم؟ ستسـافرُ بعـدَ قليـلٍ.. لكـنَّ الهاَتـفَ لـم ييأَس.. كانَ عنيـدا وعندمَـا لـمْ تجبْ، هـا هـمً يتركـونَ لهـا رسـالة صوتيَّـة: هنـا عيـادَةُ الدكتـورْ (بورجـو).. نأسَـف علَـى اللّبـسِ الـذِي حـدثَ، فالملّـفُ لـمْ يكُـنْ ملفّـكِ، بـلْ كانَ لفتـاةٍ أخـرى..

لم تصدق ما سمعت.. أسرعت بحملِ السمَّاعةِ:

-ألو.. ألو أنا هنا.. ما الأمر؟

-نعـم.. نعـم اهدئِي! فكمـا قلـتُ كانَ خطـأً، فملفُّـكِ أمامـي وليـسَ لديـكِ شـيءٌ.. هـو مجـرَّدُ إرهـاقٍ وأوهـامٍ أفرزهـا تأثّـركِ الكبيـرِ بمـرض أمّـكِ.. فبعـدَ اتصالنـا بـكِ، اتصلـتْ بنَـا فتـاة أخـرَى مـنْ رقـمٍ مختلـف عـنْ رقمـكِ وتحمـلُ نفـسَ اسـمكِ تسـألُ عـنْ نتائجهـا فاسـتغربنَا الأمـرَ بدايـة، ثـمَّ فهمنَـا أنَّ هنـاكَ مريضتـانِ تحمـلانِ الاسـمِ نفسُـهُ مـعَ اختـلاف تاريـخِ الميـلادِ ورقـمِ الهاتـفِ.. أنـتِ (كارولـين براسّـا) مـنْ مواليـدِ 1980 بنـت (فرونـس براسّـا)، أمَّـا هـي (فكارولـين براسّـا) بنـت (فريدريـك براسـاّ) مـنْ مواليـدِ 1986 وقـدْ اختلـطَ علينـاَ الأمـرُ.. آسـفٌ مـرةً

أخـرى.. نهـارك سـعيد...

كادتْ تفرَحُ.. ثـمّ تذكَّـرتْ مصيبتهَـا، فبـدأتْ تصـرُخ: لا أريـدُ أن أمـوتَ.. أنَـا أختـارُ الحيـاةَ.. قـرّرْتُ أنْ أعيـشَ.. قـرّرْتُ أن أعيـشَ....

-آلـووو.. آلـوو... آنسـة (براسـا) قلـتُ لـك أنـتِ سـليمةٌ تمامًـا، حتَّـى مشـكلة فقـرِ الـدّمِ قـدْ اختفـتِ! ..

أغلقـتِ الخـطَّ و شـكلت رقـمَ الطـوارئِ .. أجـابَ الخـطُّ فـورا: تسـعةٌ واحـد.. واحـد.. في الخدمـةِ كيـفَ أسـاعدُكُمْ ؟

-أ ..أ.. أ...

لكنَّ السماعةَ وقعتْ.. ووقعت معها أيضا..

حكاية أزليّة

دخل الربيع بجماله اليوسفي الكهف المظلم بعد عودته من رحلته الكونية وطبع قبلة على شفاه حبيبته الغارقة في سبات فصلي.. فركت الطبيعة عينيها النجلاوتين، وتثاءبت بكسل ودلع بعد سبات طويل .

غادرت شتاءها، ومشت بغنج ودلع تجر أثوابها الباهتة ويده تحتضن يدها ، فانبهرت باحتفائه بها .. ما هذا ؟ ـ صرخت ـ؛ سمفونية ألوان تتماوج من الأغمق إلى الأفتح..

لوحة ترسمها الأغاني من حناجر البلابل وخرير السواقي.. تفتّح أزهار فتية ما زالت على عهد العذرية.. أغصان لم تختِنها بعد يد البشرية.. أبسطة خضراء وقرمزية..!

حبيبي ها قد أعدت لي حياتي بعد أن كنت قاضية، وأعدت لي حريتي بعد طول اعتقال، سأستحم بأشعة الشمس الذهبية وأتعطر بشذى الزهور البرية، وأتزين بعصير شقائق النعمان الفتية، وأنزع عني أسمالا بالية لأرتدي حريرا ورديا، وبعدها أراقصك رقصة «السندريلا» السحرية، ونبارك تصالح قطبي الكرة الأرضية، ونؤبن كآبة منسية، ونتمتع بعبير شبابنا الندِيِّ قبل أن تدق ساعة التغيير الأزليِّ، فتجف من جديد أمانينا، وتُصلب أغانينا، فالحكاية مستديمة، والطاحونة تدور بنا، فمهما طال الدجى آت سناءه، ومهما طال السناء آت دجاه..

الضحية

كانت تبكي وتحتج بأنها لا تريد الزواج منه: إنه ماجن عربيد يا أمي.. أرجوك! إنهم يقولون بأنه مدمن مخدرات.. ومجنون...

-إنه شاب وسيم وغني جدا.. سيلبسك الحرير والذهب، ويسكنك قصرا... أم أنك تريدين ذلك البائس الحقير..؟!

-يا أمي حميد مثقف و معلم محترم...

-أجل هو محترم وسيسكنك في ذلك السكن الوظيفي،

ويوم تقاعده ستذهبين للشارع أنت و من ستنجِبين!

-تقققققققا عده!؟ إنه في الخامسة و العشرين يا أمي.. و الله كريم.. كريم جدا...

-أنا لا كلام لدي.. الفاتحة قد قرأت وانتهى الأمر.. أم ستجعلينا أضحوكة لأهل القرية، وتشمتينَ بيَ الأعداء، وتكونين مثَل سوءٍ لأخواتك الصغريات؟

ثارت.. تمردت.. شكت وبكت.. باءت كل محاولاتها للخلاصِ بالفشل ..

حُمِلتْ إلى بيته -عفوا قصره-مزدانة بالذهب والحرير.. مثقلة بالهدايا.. ذلك القصر كان معتقلا للعذاب والضرب والشتم اليومي والاغتصاب الشرعِّي.. لطالما ذهبت لأبيها شاكية باكية مترجية أن يخلصها.. أن يطلقها دون جدوى.. كان رده دوما: عودي إلى بيتكِ فلا مكان لك غيره! ..

-يا أبي صدقني إنه مجنون.. مجنون.. أقسم بالله أنهم يأخذونه للطبيب كل ستة أشهر، ويتعاطى المخدرات أيضا، ولطالما هدّدني بالقتل، إنه مجـ...!

-كفى هراء! إنه مجرد كلامٍ، و لن يفعل!

استمرت معاملته الوحشية لها حتى بعد إنجابها لابنتها

البكـر، أرادت أخـد حبـوب منـع الحمـل، لكـن حماتهـا كانـت تمنعهـا بحجـة أنهـا أنجبـت بنتـا وقـد يكـون القـادم ولـدا..

حملـت ثانيـة، وأنجبـت ولـدا كالقمـر، و في ليلـة لا قمـر لهـا، كان بيـت والدهـا مزينـا بالمصابيـح الملوّنـة، ويعـج بالمدعويـن داخـلا وخارجـا استعدادا لحفلـة حنّـاء أختهـا الصغـرى.. وكانـت الزغاريـد والأغـاني تصـل لحـد بيتهـا، وهـو يرفـض ذهابهـا إلـى الحفـل، وبعـد مفاوضـات بيزنطيـة أقنعتـه أمـه.

دخلـت غرفتهـا لتسـتعد.. حماتهـا أيضـا دخلـت غرفتهـا في الطابـق السـفلي لتتجهـز لأنهـا هـي مـن سـترافقها.. لبسـت فسـتان الفرقـاني الأخضـر اللـون، وتزيّنـت.. كانـت جميلـة فـوق الخيـال وابنتهـا كالأميـرة بفسـتانها اللَّيلكِـيّ.. حيـن دخـل رمقهـا بـازدراء.. كان الشـرّرُّ يتطايـر مـن عينيـه، والزَّبـد مـن شـفتيه.. بهتـت.. وقفـت جامـدة كالصنـمِ..

-تتزينيـن لـه ذلـك السـاقط الحقيـر النتِّـن..؟! خائنـة.. عاهـرة أهنـت كرامتـي.. انظـري إلـى ابنتـك! إنهـا لا تشـبهني بتاتـا.. ليسـت مـن دمـي..! انظـري إلـى ذلـك الولـد، إنـه هـو.. أجـل! هـو صـورة مصغَّـرة عنـه..!؟

هـرول إلـى المطبـخ وهـي مذهولـة كالصنـمِ .. صعـدت أمـه علـى أصـوات أطفـال تبكـي، وأثـاث يكسـر.. وقبـل أن تنهـي

صعـودَ ذلـك السـلم الطويـل، كان الهـدوء الرهيـب قـد عـم المـكان إلا مـن خطواتـه ذهابـا وإيابـا، و صـوت زمجرتـه:

-خائنـة تتزيـن لـه.. أكيـد أنهـا واعدتـه.. أكيـد أنـه هنـاك الآن ينتظرهـا.. سأرسـلها لـه فـورا.. فـورا.. سـيلتقيان في الجحيـم.. زنادقـة.. زنادقـة..!

هـرول خارجـا.. صفـق البـاب حتـى خُيِّـلَ لأمـه أن البيـت تحـرك ذهابـا وإيابـا.. أفاقـت مـن دهشـتها، فاتجهـت نحـو غرفـة نـوم كنَّتهـا.. كانـت رجلاهـا ترتعشـان، وحدسـها ينبئهـا أن طامـةً كـبرى قـد حلـت..

دخلـت الغرفـة.. كان المشـهد مروِّعًـا لا يتحمَّلـه بشـر؛ الطفلة بنفسـجية اللَّـون بـلا حـراك وقـد طُبِعَـتْ على رقبتهـا الصغيـرة أثـار أصابـعَ خشـنةٍ غاصـت في اللحـم الغـض.. أمَّـا الرَّضيـع فَشُـطِرَ نصفيـن.. نصـف بقـى على صـدر أمـه التي هُشِّـمَ رأسـها وغرقـت في الدمـاء، و الآخـر رمـي أرضـا بجانـب السـاطور الحـادِّ الـذي قطـع بـه كبـشُ العيـدِ قبـل يومينِ.!.

إعدام

اليـوم ليـس لديهـا تطبيقـات بعـد الظهـر، إذن لا بـأس.. سـتتغيب عـن المحاضـرات، وتنـزل إلـى السـوق لتشـتري مسـتلزمات خطوبتهـا، فالخطوبـة السبت، واليـوم الأربعـاء ولـم يبـق لديهـا وقـت كاف للتحضيـر.

بـدأت تلـف علـى المحـلات.. يلزمهـا حـذاء بكعـب عـالٍ.. أدوات زينـة... أظافـر صناعيـة.. اشـرت أيضـا بعـض الحلويـات رغـم أن أمهـا قـد أعـدت الكثيـر.. لكـن لا يهـم زيـادة الخيـر..

خيـر..

مـرت علـى أشـهر حلاقـة بالمدينـة، حجـزت موعـدا لهـا ولصديقاتهـا.. أسـرعتِ الخطَـى إلـى البيـت لتُفـرح أمهـا بمقتنياتهـا.. دقـت الجـرس.. فُتِـحَ البـاب عـن وجـه متجهـم لـم يكـن وجـه أمهـا.. كان أزرقـا ليـس كالبحـر ولا كالسـماء.. لا.. لا! أخضـر.. لكـن ليـس كالعشـبِ!

-ما الخطب؟

لـم تجبهـا أمهـا، بـل تهاطلـت الدمـوع مـن عينيهـا واحتضنتهـا بشـدة بيـن ذرعيهـا كأنهـا تريـد احتجازهـا في حضنهـا للأبـد كـي لا تعلـم بمـا حـدث.. لمحـت علـى الكرسـي جريـدة علـى صفحتهـا صورتـه.. أجـل صورتـه..! سـقط الكيـس مـن يدهـا، وتبعثـرت كل أشـيائها، دفعـت أمهـا برفـق.. وأخـدت الجريـدة.. خطفتهـا أمهـا صارخـة: لاااااااا!

لكنهـا اسـترجعتها وقـرأت: «مجوعـة إرهابيـة تسـتولي علـى الثكنـة العسـكرية... بمدينـة.... راح ضحيتهـا سـبعة جنـود، وأعـدم المـلازم أول(...) رميـا بالرصـاص..!

كنزه الثمين

نـام وتحـت المخـدة الكيـس الحـاوي لكنـزِهِ الثميـنِ هـو وكل عائلتـه؛ زوجتـه.. والـده.. والولـدانِ.. كيـف لا يكـون كنـزا وقـد انتظـروا هـذه الدراهـم زمنـا مـن الفقـر والعـري والجـوع؟ كيـف لا يكـون؟ وهـي ثمـن قطعـة الأرض الوحيـدة التـي يمتلكونهـا شـراكة مـع كل عائلـة أبيـه، وبعـد نـزاع وخصـام ومشـاكل بيعـت، وكانـت حصّتهـم ثلاثـون مليـون سـنتيم جزائـري!

لـم ينـم، بـات يتقلـب قلقـا، فيومـه غـدا طويـلا.. سـينزل

المدينـة باكـرا، ثـم مـاذا؟ سـيبدأ باقتنـاء كل الطلبـات.. أجـل! كلهـا.. فلـن يتركهـم للانتظـار بعـد، فقـد شـبعوا انتظـارا عقيمـا: كرسـي متحـرك لوالـده، وبطانيـة جديـدة، فبطانيتـه مـا عـادت تدفّـئ.. فسـتان وحـذاء لزوجتـه، وقميـص نـوم وأحمـر شـفاه.. أجل! إنها تستحق.. لِـمَ لا؟ الولدان.. أممممْ.. لباس.. أحذية.. محافظ.. لـن يحملـوا بعـد اليـوم أدواتهـم في أكيـاس بلاسـتيكية.. لـن يضحـك منهـم الأطفـال.. لـن تشـتمهم المعلمـة بعـد اليـوم.. لـن يصـرخ المديـر بوجوههـم.. و كـرة.. شـوكولاتة وحلـوى لكليهمـا، وسـريرينِ.. أجـل! سـريرين وفرشـين ملوَّنيـن.. لـن يناما بعـد اليـوم على أفرشـة رثة على الأرض.. أبـدا.. أبـدا .. و مدفأة كهربائيـة.. وأكل.. أكل كثيييير.. لحـم ، رغـم أنـه لـم يعلـم بثمـن اللحـم منـذ.. منـذ..! لا يهـم منـذ متـى.. وسيشـتري دجاجـا وفواكـه.. أجـل! سيشـتري المـوز.. فالولـدان لا يعرفـان طعمـه...

وأنا؟ ماذا عني أنا؟

سـأكتفي بحـذاء، فحذائي مـا عـاد صالحًـا للتصليـحِ ، وهاتفـا نقـالا.. وسـأجلس علـى المقهـى، وأتكلـم حتـى لـو لـم يطلبنـي أحـد.. سـأتظاهر بأننـي أتكلـم..

غفـتْ عينـاه فـإذا الدّيكـة تصيـح.. قفـز مـن فراشِـهِ علـى عجـلٍ.. توضـأ وأدى فرضـه.. رفـض أن يفطـر مؤكـدا لزوجتـه

أنـه سـيفطر في إحـدى محـلاتِ المرطبَّـات التـي لطالمـا اشـتهى دخولهـا ولـم يفعـل.. ودّع زوجتـه ووالِـده، ثـم قبَّـلَ الولديـن. وحمـل الورقتيـن اللتيـن تضمـا طلبـات كُلٍ منهمـا، وانطلـق قاصـدا محطـة الحافـلات.. وكان اليـوم يـوم الثلاثـاء و هـو يـوم السـوق الأسـبوعي بمدينـة «الميليـة «.. قـال في نفسـه: ربـي يسـتر مـن قطـاع الطـرق واللصـوص المتربصيـن بالمتسـوقين..!.

كان الطريـقُ ضيقًـا ومظلمًـا، وفي المنعطـف المغطَّـى بأشـجار الزيتـون الكثيفـة انقضـتْ عليـه يـد همجيـة مجرمـة سـادية عابثـة بسـكينٍ حـادةٍ أردتـهُ بـلا حـراكٍ سـالبةً مـا في جيبـه مـن أوراقٍ.. و مـا في قلبـهِ مـن أحـلام غيـرَ عابئـةٍ بمـنْ في البيـتِ ينتظرونـه.. ولـمْ يعرفـوا بأنهـم أبـدًا بعـدَ اليـومِ لـن يرونـه..!

هي.. و هي..!

كانـت ـ عـن قناعـة أو عـن حـب مشاكسـة أو حسـد أو غيـرة فهـي لا تـدري، فكثيـرا مـا تمتـزج المشـاعر داخلنـا في غيـر تجانـس، فـلا نعـد نـدري مكنـون بواطننـا، وماهيـة مشـاعرنا، ولا دواعـي سـلوكياتنا ـ تتربّـص بمنشـورات تلـك الكاتبـة الكبيـرة، كلمـا نشـرت انتقدتهـا ونعتتهـا بالخـروج عـن العـرف و الخلـق وكسـر االطابوهـات و الترويـج للخيانـة الزوجيـة و التعدديـة العشـقيّة، و بـأن أذبهـا هـو أدب مراهقيـن و غـرف نـوم ....هـا

هـي تنشـر أولـى رواياتهـا بعنوان:(ألـف قبلـة.. وقبلـة).. صـورة الغـلاف ولا أفضـح! النصـف العلـوي لجسـد امـرأة شـبه عاريـة بثدييـن منتفخيـن مشـدودين تثيـر حتـى مـن يعـاني مـن انخفـاض نسـبة هرمـون التستوسـتيرون.. عبـارات ملتهبـة.. وصـف مدقـق لمـا يوصـف، ومـا لا يجـب أن يوصـف.. إثـارة مغرضـة.. قدّمـت لهـا انتقـادات، فقالـت :هـذا ليـس بيـدي.. إنـه الوحـي والإلهـام.. الفكـر طائـر محلـق لا يجـب وضعـه في قفـص الأخـلاق وسـجن المعتقـدات وخرافـات الطابوهـات !

ذاكرة الحلم

كـم كانـت تحلـم أن تكتـب وتبـدع نثـرا، وتقـرض شـعرا، وتسـافر إلـى كل الدنيـا؛ القاهـرة ودبـي وباريـس و لنـدن.. وتحضـر المعـارض.. ويتهافـت المصـورون لتصويرهـا كنجـوم هوليـود، لكنهـا لـم تفعـل! ليـس لغيـاب موهبـة أو نقـص ثقافـة.. ولا.. ولا.. فقـط لأنهـا تعيـش في مجتمـع متربـص للانقضـاض علـى الآخـر.. مجتمـع متخصـص في تلفيـق التهـم، والنـاس فى بلادهـا لا ترحـم!

قالت تحدث أناها: كلما أردت أن أكتب وجدتني أصطدم بواقع مرير.. الطابوهات الاجتماعية والأعراف تقف حاجزا أمام حرية الإبداع، وتغربل أفكاري أوتوماتيكيا.. لا شعوريا بالرقابة السيكوسلوكية.. المشكلة أننا نعيش في مجتمع متقوقع على ذاته يمارس تسلطه العرفي بقوة تفوقت على قوة الدين والقانون، وتلك التنشئة الاجتماعية، و الفكرعقائدية تنغرس في أعماق الروح، فيصعب التخلص منها حتى بالتدخل الجراحي، فهأنذا أعيش في مجتمع متحرر، لكن لا أسلك سلوكهم، ولا أمتلك تحررهم الفكري والعاطفي لأن الذاكرة الجمعية تلاحقني أينما كنت على سطح هذا الكوكب، فمجتمعاتنا العربية مجتمعات مريضة.. إسقاطية.. متربصة.. شغلها الشاغل إبداع الكنيات وتشخيص الأمراض دون وصف الدواء، فإن كتبت عن ملحد أنت ملحدة، وإن كتبت عن الخيانة، فقد خنت يوما ما، وإن كتبت عن مومس، فأنت عاهرة.. و إن كتبت عن الاكتئاب، أنت مكتئبة.. وإن كتبت عن الوحدة أنت تعيشينها.. مع أن الإنسان في الحقيقة غالبا لا يكتب عما حدث و لكن يكتب عما يمكن أن يحدث.. عمّا يتمنى لو حدث.. عما يسمعه ويراه.. عما حدث لغيره.. يكتب حتى عمّا لن يحدث.. كيف تكتب والمجتمع سيحاسبها مرتين؛ الأولى لأنها كتبت، والثانية لأنها امرأة وتجرأت، و كتبت .

قالت: لكني الآن أعيش في أروبا ويمكنني أن أبدع وأكتب..

لكن أين سأنشر كتاباتي؟ ومن سيقرأ عاري؟ أليس هم هناك.. أولئك الذين يطبقون على صدرك.. يعدّون أنفاسك.. يحرّمون عليك حتى الحلم والاحتلام! يتدخلون بلباسك، وبطريقة مشيك وكلامك وعلاقتك بربك و بزوجك.. يتجسسون على قمامتك ليعرفوا ما كان غداؤك و عشاؤك..؟!

كيف تكتب في مجتمع يجعلك عاهرة لأنك وضعت نظارة أو قدت سيارة.. ينعتك بالدنو والخزي لأنك كلمت رجلا، أو لبستِ سروالا، أو تكحّلت، أو وضعت أحمر شفاه.. يحاسبك إن طُلقت أو تطلقت.. يحاسبك حتى لو ترملت، ويسميك (هجّالة)، و إن تزوجت بعد زوجك فقد ارتكبت خطيئة وعارا، وإن طالبت بحقك في ميراث أبويّ نُبذت.. و إن...وإن ..

استفاقت من هواجسها على صوت المريضة الممددة أمامها على االسرير وهي تقول باشمئزاز:

-أنت أيتها الممرضة.. أنت هنا لخدمتي، أم للذهاب إلى القمر؟ سألتك ثلاث مرات متى سيمر الطبيب و لم تجيبيني.

.

مسحت دمعة وحيدة باردة من على خدها، وقالت بانكسار:

-حاضر سيدتي.. لا تقلقي! سأسأل حالا.

الغربة امرأة

تسألني لمَ أبكي يا فتى؟

لأنني مجرمة بلا جرم.. عاقّة بلا ذنب.. ومهما كبرت أو صغرت.. مهما طولت أو قصرت، أظلني بلا نسب ولا أصل مهما عظم نسبي إلى أن أنسب لرجل!

أنثى، وما لي غير الأدمع كالسيل.. كالسلسبيل تنهمر، تغسل روحي والهموم .. من ضلع أعوج خلقت.. قيل إنني

في صـورة شـيطان أُقبـل.. وعلـى هيأتـه أدبـر.. قيـل إني الأفعـى بسـمّها، والجنيّـة بمكرهـا.. بيـدَ أني لأهلـي مطعيـة.. حانيـة.. مُحبـة.. وعنـد زوجـي الخادمـة والعشـيقة والممرضـة والمربيـة والمعلمـة و السـكرتيرة و المعيلـة إن لـزم ..

أنـزف ومـن رحـم الألـم أهـب الحيـاة والأمـل.. مـن عصـارتي تغـذّى الأنبيـاء، وعلـى يـديّ تربـى الأتقيـاء، فهـل مـن شـاكر؟ هـل مـن ذاكـر؟ و مـا المعنـى إن وجـد؟ إذا أحسـنت ألا يُقـال إني رجـل؟ وإن أسـاء الرجـل نعتـوه بامـرأة ؟ عجيـب أمركـم يـا عـرب! تظـل المـرأة مـرأة إلـى أن تبـث أنهـا رجـل، ويظـل الرجـل يكابـر ويجاهـد ويخفـي مـا ظهـر لـه مـن بواطـن ليثبـت أنـه رجـل!..

أنـا غربتـي هنـا جسـد مجمـد تحـت الجليـد.. ممّـددا داخـل إغلـو(iglou) الحيـاة.. أنتظـر الربيـع أن يجتـاح وحشـة مدينتـي الضبابيـة، والضـوء السـاطع أن يغشـى صمـت المـوت للحيـاة هنا، تمثـال أنـا في متحـف الشـمع مومياء إلـى حيـن يعـاد بـث الحيـاة في شـراييني، قـد يـذوب الثلـج غـدا، ويصنـع إكسـير الحيـاة أمـس، قـد آتيكـم فراشـة طائـرة، فـلا تكسـروا أجنحتي.. وقـد آتيكـم محمولة في أسـفل(كلارغو) فـلا ترثـوني، ولا تؤبنـوني، فقـد اخـترت المـوت وحـدي كمـا كنـت أفـرح وحـدي.. لـم أشـرككم أفراحـي، ولـم أشـاركم أحزانكـم مـن يـوم اقتـدت إلـى منفـاي بـلا محكمـة، ولا حكـم.. فـلا تلبسـوا الحـزن عنـي، أنـا غربتـي هنـاك.. وهنـا.. إن

مضيت هناك أحببت هنا، وإن عدت هنا رثيت الـ«هناك»، وكم من امرأة غربتها هناك بينكم وفي عقر دياركم ..

فإن متُ لا تعبؤوا بي، وامضوا بدوني كما حملتنِي ذات يوم ومضيت إلى قدري غير عابئة بما ذرفتم من أدمع.. أنا غربتي هنا بعيدة عنكم.. وأنتم غربتكم هناك بغيابي عنكم.. ما كان الذنب ذنبي ولا ذنبكم.. إنه العرف والقدر، فالمرأة ظل الرجل، كان يومها الزوج أمامي، والولد يسكن أحشائي، وأنتم ورائي.. فما أصعبه من قدر! والإنسان على حب الذات فطر..

في صباحات غربتي الجليدية.. غربتي عن كل ما.. ومن عشقت.. غربتي عن ذاتي.. بلدي.. لغتي.. هواياتي.. وكل ممتلكاتي ومشتقاتي؟؟ كل شيء يهرول مني ماضيا نحو اللهفة الدنيوية التي لا تعرف الوقوف والتوقف.. فأنّى لي أن أسترجع ذكرياتي، وما مضى من حياتي والتوتر يغزو ذاتي من ثقل مسؤولياتي؟! حتى قهوتي ما عاد لها طعمها القديم، وكم اشتقت لرائحة الخبز الساخن، وطعم الزيت.. ما كذب من قال: أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي..!

أما لياليها فلا تسلني، فإنك إن خبرت فسترثي لحالي..

امرأة عصية الدمع أنا.. أمقت الرثاء.. كل ليلة أنغرس في

وسادة فاخرة ناعمة لم تدرِ أنّ قدرها حمل رأس كرأسي.. مثقلة بخطى أيام تعيشني بمشتهاها.. رأس تثقلها أفكار تعفنت من كثر اختمار..

في ليل غربتي أفتح نافذة لي على وطني، وأبدأ بعدِّ أحبتي ذكرى.. ذكرى.. وخبراتي فرحا.. فرحا، وجرحا.. جرحا.. ويباغتني الفجر، فترميني وسادتي التي ملت الأدمع.. ولا أنام....

طقوس في الظلام

كانت صحفيّة ناجحة ومغامرة وابنة رجل أعمالٍ.. قررت كشف سرّ ذلك المُنجّم الكبيرِ الذي ذاع صيته في المدينة مؤخرا.. اتفقت مع صديقتها الشرطية.. تنكرتا بزيّ متحجبتين منقبتينِ، وقصدتا وكر الدجالِ ..

استقبلهما الخادم في غرفة الانتظار المكتظةِ بالمنتظرين.. أغلبهم منتظرات.. طال انتظارهما حتى كادتا أن تغادرا، لكن الخادم نادى عليها، تبعته وبقيت صاحبتها الشرطية تنتظر.

أخذهـا الرجـل في سـرداب طويـل قليـل الإضـاءة، وبـدأ باسـتجوابها: -سـنك وعملـك وهـل أنـت متزوجـة ؟

قالت: لِمَ كل هذه الأسئلة؟

قال: أنت هنا لتُسألي وليس لتَسألي..

أجابته مغيرة كل شيء في هويتها.

انتهـى بهمـا السـرداب إلـى غرفـة مظلمـة.. كادت تعـود أدراجهـا: يـا إلهـي! أيـن أنـا؟ لكنهـا تشـجعت.. دخـل، وكلـم سـيده همسـا في أذنـه، ثـم أومـأ لهـا أن: اقتربـي ..

دخلـت.. كاد رأسـها يلامس السـطح لشـدة انحداره، الغرفة شـديدة الظـلام.. لـم تـر إلا شـيئا أسـود مكومـا علـى أريكـة حمـراء.. لحيتـه بيضـاء تغطـي صـدره.. أمامـه موقـد تفـوح منـه روائـح غريبـة.. بيـن يديـه سـبحة تتنـاوب حباتهـا تحـت أناملـه.. كان يتمتـم بـكلام خافـت يـزرع الرهبـة فِـي النفسِ.. أحسـت كأنهـا تعـرف هـذا الشّـخص لكـن لـم يكـن صحيحـا، فهـي لـم تـزر دجـالا في حياتهـا، ولـم تـره إلا في المسلسـلات العربيـة .

قال الخادم: الدفع قبل الكشف يا سيدتي..

أومـأت برأسـها إشـارة عـن الموافقـة.. أخرجت ظرفا محشـوا بالمـال.. ناولتـه إيـاه متمتمـة: « اللّعنـة إنه نصـف مرتبّي!»..

-اجلسي!

جلست على بساط معدٍّ للمرضى.. ناولها الخادم كأس ماء، وقال: اشربيه إنه مبارك.

ارتعدت فرائسها لكنها اضطرت لشربه.. أحست بدوار.. قال: استلقي قليلا الآن يكلمك الشيخ، واطرحي مشكلتكِ عليه!

لم تشعر إلّا بيديْن تداعبان جسدها، وتنزعان ملابسها وهي خائرة القوى لا تتمكن من المقاومة.. أحست بشيء يخترق أحشَاءها، وفمّ يلتهمها، وحبات عرق تقطر على وجههَا.. لم تستسلم.. ظلت تقاومه وهو يلهث فوقها كالكلب، ثم صرخ: اللّعنة عليك يا كلب يا غبي.. إنها عذراء.. عذراء..!

أخيرا تمكنت هي من دفعهِ.. ارتطم رأسه بالطاولة.. تساقط الجمر على لحيته، فصرخ.. وصرخت.. أسرع الخادم بإشعال الضّوء ونزع اللّحية المزيّفة عن وجهِ سيّده.. ظلت تصرخ كالمجنونة: لا.. لا.. لا.. غير ممكن.. غير معقول!

كيف لا تجن وهي تكتشف وجه مغتصبها.. هاتك عرضهِا.. فاض بكارتها.. حاميها.. محرمها..!

سمعت الشرطيّة الضّجة.. أسرعت إلى الداخلِ.. رأت

صديقتها ممزقة الملابس غارقة في الدم .. لم تشعر إلاّ وهي تشهر مسدسها على الدّجالِ ضاغطة على الزّنادِ.. أسرعتِ الأخرى واحتضنته صارخة : أبيييييييي!

فاخترقت الرّصاصة قلبها بدل قلبهِ...

الحطاب السادي

كان الربيع قد ولد خديجا جميلا وبديعا، وكان حطّابا نرجسيا ساديا.. كانت الأغصان الغضة قد أينعت قبل أوانها كأنها تتحرش به.. تثيره.. تنادينه .

دخل الغابة مستنشقا روائح ضحياه التي تنعش غرائز.. الوحش السادي الساكن فيه حاملا فأسا قد سنها عمدا.. مشى غير عابئ بأن أقدامه الضخمة تدوس زهر الأقحوان الذي افترش بساطا أبيض احتفاء بالربيع.. انسحقت تحت نعليه

زهـور شـقائق النعمـان الفتيـة، تهـاوى بفأسـه السـوداء القاسـية كقلبـه علـى الشـجرة غيـر عابـئ بثمارهـا الصغيـرة التـي تناثـرت علـى الأرض، فأدمـت فأسـه الغصـن اليتيـم! صرخـت الشـجرة صراخـا موحشـا اهتـزت لـه أدغـال الغـاب.. فـرت الطيـور التـي غـدت شـريدة بـلا وطـن بعـد أن دمـر أعشاشـها الحبلـى بالبيـض فثكلهـا وانطلقـت حزينـة تبحـث لهـا عـن لجـوء في حضـن شـجرة أخـرى، وغابـة أخـرى.. كان حطابـا عابثـا يشـعل النيـران ولا يطفئهـا.. يجـرف الأراضـي.. يتلـف كل مـا ينبـت..

تـرك الغابـة غارقـة في الغبـار والدخـان والرمـاد والبـكاء والعويـل، ومضـى يبيـع حطبـا، وبثمنـه قصـد حانـة المدينـة يغـازل النادلـة، و يمـلأ كأسـا بعـد أخـرى..

كانـت النادلـة تثيـره كالغصـن.. تزيـد رجولتـه طـولا، وفحولتـه قـوة وتتسـبب في تدفـق التستوسـتيرون مـن غـدده الصمـاء، وتصيبـه بالعمـى الروحـي.. هـا هـو يسـحقها تحتـه كمـا سـحق الأقحـوان والنعمـان.. أنينهـا يشـبه أنيـن الغصـن.. يتخلـص مـن فائـض نطافـه في أحشـائها.. يرميهـا بمـا تبقـى في جيبـه مـن ثمـن الحطـب.. يرمقهـا بـازدراء واشـمئزاز.. و يمضـي...

بحيرة الرب

اكتظت الكنيسة بالجلوس.. الجو رهيب.. مقفر.. مخيف.. الكل ساهم كالمغشي عليه.. العيون غائرة، والنفوس وجلة يغشاها إحساس لا تفقه كنهه؛ إحساس سرمدي باللاّشيء كأنها تخشى أن يفتح التابوت، وتمتد يد قوية لتسحبها معها إلى ذلك العالم المظلم سبعة أسفار تحت مستوى الحياة.. يكسر الصمت بدخول الكاهن مثقلا بزينته، ويبدأ في تأبين الراحل بما فيه و ما ليس فيه.. ها هو يكذب و يقول أن أباها

كان.. وكان.. مع أنه كان سكيرا، وكم من مرة وُجد يقضي حاجة شهوانية مع عجل من العجول.. يتلذذ بالعجل حيا، ثم بلحمه مشويا.. عُزفت سمفونية الوداع.. موسيقى تبعث في الروح إحساسا باللاَّانتماء.. بالضياع.. تمتزج المشاعر بين حزن وألم...

انتهت مراسيم الدفن، تفرق الجمع إلا منها وكلبها (فيدال).. ألقت نظرة أخيرة على منجبها في مثواه الأخير، ومضت حاملة يتمها العتيق، فاليوم قد أُعلن رسميا يتمها الذي ولد من ثنايا طلاق أمها وسفرها بعيدا، وهجر منجبها لها وهي ابنة السادسة عشرة ليقيم عند عشيقته، وتكابد هي الحياة وحيدة.

كانت تسير عائدة إلى البيت المهجور.. أحست بالوهن.. جلست تستريح على شط بُحَيْرة وكلبها باسط ذراعيه قربها، لم تملك نفسها عن الغوص في استبطان عميق، وفكر عنيد: مخلوق يأتي من العدم، يظل يدور كعقارب الساعة، يُفنيه الانسحاق اليومي تحت عجلة الزمن، والخوف من المجهول ومن ذلك الوحش الشره الذي لن يكف عن التهام الأرواح، وبصق العظم إلى أن يذبح يوما ما على عتبة الأزل.. ذلك القناص الذي يولد معك ويظل ينتظر ويتلذذ بهواجسك إلى أن ينقض عليك في لحظة مباغتة، فإذا أنت تجتاز البرزخ الدنيوي

إلى عالم ببُعْدٍ آخر، ولون آخر وعرف غير الذي تعرفه.. الزمن أكبر خدعة؛ يوهمك بأنك تزيد بيد أنك تنقص، فكلما زاد يوم في سنك، نقص يوم من عمرك، وكلما تقدمت خطوة في الحياة، اقتربْتَ خطوة نحو الفناء..!

الآن فقط من حقها أن تحزن وتكتئب دون أن يلومها أحد، أو ينظر إليها الناس بنظرة استغراب وشجب وخوف.. اليوم من حقها أن تتصرف على طبيعتها.. أجل! ستطلق العنان لحزنها وكآبتها.. لن تجبر على تصنع البسمة والمجاملة، فأبوها قد مات ومن حقها أن تحزن.. إن هذا الفكر اللعين سيودي بي إلى الجنون (قالت..).

سمعت الكاهن يعيد ما قاله في خطاب الأحد الماضي: التجربة الأجمل والأروع والأعمق التي يمكن أن يخوضها أي إنسان هي الغوص في الغموض، فعلى سطحه تتكون العقائد والديانات والمبادئ وكل نشاط فكري راق وجاد وهادف من علم وفن، فمن لم يغص في عمق المجهول الغامض، يحيا حياة الموت الفكري بكل تفاصيله، و العمى العقلي المستديم.. أن تحس دوما أن وراء كل ما تعرف وما اكتشفت هناك أشياء انزلقت.. أفلتت من تلافيف وعيك ومن فهمك وطاقة إدراكك المحدود مهما فاق، هذا ما يعطي للفكر الحافز على الاستمرار في النشاط والعطاء والبحث والاكتشاف، وغير

ذلـك يصيـب الفكـر بسـكتة فكريـة، وذلـك الغمـوض هـو مـا يمنحك الإحساس بالرفعة والجمال، ويجعلك جوهرا مختلفا عـن باقي الكائنات البيولوجية، ويكفي أن تقف مبهورا أمام كل معرفـة ميتافيزيقيـة وبارابسـيكولوجية لتسـتقرئ الرفعـة والسـمو الفكـري والعقائـدي والأخلاقـي .

هـا هـي الآن تفعـل، فلْتَبُـح لنفسـها بمكنونـات نفسـها.. فلْتَغُـص في الغمـوض، فالريـح قـد جـرَت باتجـاه شـراعها .

لكـن الكاهـن قـد نهى أيضـا عـن الحـزن و دعـا للسـعادة، ألـم يقـل: في جوهـر الكائـن البشـري وطبقـاتِ ذاتـه العميقـة الغابـرة في الوجـود، الراسـخة في تلافيـف اللاّوعـي قوتـان تتصارعـان منـذ الأزل ألا وهمـا: قوّتـا البنـاء والهـدم.. غريزتـا البقـاء والفنـاء.. حالتـا السـعادة والكآبـة.. إذن؛ السـعادة موجـودة في داخلنـا.. في فطرتنـا.. أجـل! إنهـا هنـا.. مـا علينـا إلا مـد أيدينـا واسـتخراجها كمـا اسـتخراج البـترول مـن أعمـاق الكوكـب.. السـعادة خـبرة وليسـت موهبـة.. علينـا أن نتعلمهـا كمـا نتعلـم المشـي و الـكلام.. السـعادة خـبرة علينـا أن نتقنها كما نتقـن القراءة والكتابة.. السـعادة عقيـدة علينـا أن نؤمـن بهـا ونسـتقبلها ونجعلهـا تطفـو علـى سـطح عقولنـا وتتجلـى في سـلوكنا، و نوظفهـا لخدمـة الحـق والخيـر والفضيلـة، و كلمـا تذوقنـا السـعادة أحببناهـا وصعـب علينـا الاسـتغناء عنهـا، والسـعادة ليس أن نكـون سـعداء فحسـب، و إنما

أن نـرى الفـرح والبهجـة في عيـون الآخـر، وهـذه هـي السـعادة في أرقى وأسـمى معانيهـا و مفاهيمهـا.. ولأن السـعادة شـعور نصنعـه بأثمـن الوسـائل كمـا بأبسـطها، وإذا كنـا غيـر قادريـن علـى تغييـر الكـون، فنحـن قادريـن علـى تغييـر شـعورنا تجاهـه، ويجـب ألاَّ نكتفي بالتجـاوب مـع الخبـرات التي تسـعدنا، بـل علينا أن نسـعى للبحـث عـن السـعادة، ولأن السـعادة إحسـاس مُعْـدٍ، فكلمـا كنـا أكثـر سـعادة، كلمـا انتقـل هـذا الشـعور للمحيطيـن بنـا، وهـم سـينقلونه لغيرهـم.. وهكـذا.. فلـو اقتنـع كل واحـد منـا أن سـعادته ستسـعد مـن يحـب، سـتصبح السـعادة واجبـا أخلاقيـا واجتماعيـا.

أيـن هـو هـذا الجوهـر؟ لِـمَ لا يظهـر لهـا؟ لـمَ لـمْ تعثـر عليـه؟ أم أن الكاهـن يكـذب؟؟

ربتـت عليهـا يـد في الظـلام، ولفتهـا ذراعـان ظنـت أنهـا تعرفهمـا، وقـال صـوتٌ تراتيلـه مألوفـة لأذنيهـا:

-الكاهـن لا يكـذب يـا عزيـزتي! هـو يحبـك.. يحبـك أكثـر مـن ذلـك السـافل الـذي أنجبـك، فقـط كـوني لـي، ولـن تندمـي!

حاولـت أن تصـرخ.. كتـم نفَسـها براحتـه.. نبـح الكلـب ثـم سـكت..

أصبحـت تلـك القريـة الهادئـة السـاكنة علـى غيـر عادتهـا.. حركـة وضجيـج.. سـأل الكاهـن خادمـه: مـاذا حـدث؟

-يقال إن (ساراكيم غانيون) وجدتْ مقتولة قرب بحيرة الرب .

-ماذاااا؟ (ساراكيم) التي دفنا أباها البارحة ؟؟

-أجل يا سيدي! هي

-يا للهول! هيا بنا.. أسرِع لنرى ما الأمر...

وصل الكاهن.. جَمْعٌ من الناس يحيط بالجثة الهامدة.. وصلت سيارة الشرطة والإسعاف.. بدأ كبير الشرطة يستجوب الجمع ..

قال أحدهم: هي (ساراكيم غانيون) ابنة(إيفون غانيون) دفناه البارحة.. مسكينة!

قال الآخر: هي تقيم وحيدة في ذلك المنزل منذ عادت والدتها إلى بلدها الأصلي (المكسيك)، بعد أن اكتشفت انحراف زوجها، و شذوذه، وميوله الجنسية للحيوانات..

قال ثالث: أجل! كان أيضا سكيرا و لصا..

قال الشرطي: دعونا من والدها! هل كان لها أعداء.. أو مشاكل مع أحد؟

قالت عجوز: أنا جارتها وعرابتها، لم يكن لها أعداء ولا مشاكل!

-هل كان لها صديق أو رفيق ؟

-كانت تحب شابا استمرت علاقتهما ستة أشهر، ثم انتحر.. ومن يومها و هي تعيش حالة اكتئاب و توتر..

قال الكاهن أجل.. أجل كانت مكتئبة، وكم حاولت الانتحار.. أكيد أنها انتحرت.. أكيد!

العجوز: غير ممكن!

الخادم: فعلا! لقد جاءت قبل أيام إلى الكنيسة، وكانت محبطة وتقول أنها تريد الموت، وقال سيدي إنها مهرة فاتنة، وتستحق حياة أفضل..

الشرطي بصوت متهدج: لم تنتحر وإنماقتلت بضربة عنيفة خلف الرأس، والجثة عليها أيضا آثار اغتصاب .

العجوز: مسكينة صغيرتي.. ظلت عذراء رغم كونها في الثالثة والعشرين، و ها هي تغتصب وتموت..

صرخ الكاهن: لم تكن عذراء.. لم تكن عذراء!

الشرطي: وما أدراك؟ ثم ما هذه الخدوش على عنقك؟ وما به معصمك مضمّد؟

الكاهن: الخدوش..! كنت ألاعب قطتي فخدشتني

اقترب الشرطي من الكاهن.. فك الشريط الملفوف حول

معصمه، صرخ: يا للهول! عضة غائرة.. هل لاعبك كلبك أيضا؟

-أ...أ...أ...

خرج (فيدال) زاحفا من خلف أشجار التفاح البري والأشواك المتشابكة و بين أسنانه ميدالية ذهبية مقطوعة نقش عليها صليب وأول حرف من اسم الكاهن..

و ضع الشرطي يده على كتف الكاهن وقال: تفضل معي.. للكهنة أيضا نزوات.. و زلات!

زهرة الأوركيد

كانـت متكـبرة مغـرورة مكابـرة، وجميلـة فاتنـة.. كان طيبـا ويحبهـا، تكلمـه يومـا، وتقاطعـه ثلاثـا.. تنظـر إليـه باسـتكبار وعجرفـة.. لطالمـا سـأل نفسـه: لِـمَ تزوجتْني يـا تـرى؟ أتحبنـي وتتمنـع حتـى يزيـد شـوقي لهـا؟ لكـن هـذا كثيـر..! مـرت أكثـر مـن سـنة علـى زواجنـا، لـم نعـش فيهـا الحـب إلا نـادرا.. إنجـاب؛ لا تريـد أن تنجـب! جننتنـي هـذه المـرأة.. جننتنـي..! إذا غازلتهـا، هجرتني.. إذا دللتهـا، زجرتني.. إذا أهملتهـا، لاحقتني وخنقتني:

«أين؟ ومتى؟ ومع من؟ و.. تحرّم عليّ ما تحل لنفسها، حتى غدت بتسلطها الرجل، وأنا المرأة!

ركب سيارته وانطلق ليقضي ليلته في المكتب.

فتحت باب المكتب.. تفاجأت:

-آسفة يا سيدي لم أعلم أنك هنا ،

-لا عليك.. تفضلي،

كانت رقيقة كالفراشة، باسمة الثغر، وضعت باقة زهور بريئة على المكتب.. كانت تعامل الزهور بلطف، وتحنو عليها كي لا تجرح وريقاتها الهشة .

-من أين اشتريتها؟

-لم أشتريها قطفتها بنفسي من منتزه

-ما أجملها ! اجلسي

-حاضر

وجلست قبالته.

-ما رأيك بي ؟

-رجل قمة في الخلق والأدب.. ناجح في عملك.. لكن لمَ تسأل.؟

-هـي لا تـراني هكـذا.. تنظـر لـي باسـتعلاء و اسـتكبار.. لا تبتسـم.. لا تمـزح.. لا.. و لا ..

-إنها فقط تتدلل..

-ليـس دلالا.. لا أظنهـا تحبنـي، ولا أفهـم لِـمَ تزوجتنـي؟! قولـي لـي مـا هـو الحـب في نظـرك؟

-الحـب الحقيقـي لا يضيـق خناقـك، بـل يحـررك، يعلمـك كيـف تتنفـس ملء رئتيـك لأنـه يعـي أن الآخر ليـس مـن ممتلكاته، بـل «أنـا» مسـتقل بذاتـه، وإن أعطـى شـيئا فبمحـض إرادتـه، ومـا يأخـذ بالقـوة لـن يكـون حبـا، وليـس لـه طعـم.. ولا اغتصـاب في الأحاسـيس، ولا معنـى للاسـتئثار بالمشـاعر، والتزيـن بالمظاهـر، نعـم جميـل أن نكـون معـا لكـن نحتـاج أيضـا للانفـراد بذواتنـا أحيانـا لترميمهـا.. للومهـا.. لعتابهـا.. لشـحن بطاريتهـا.. لتجديـد قاموسـها.. لتنظيـف الغبـار العالـق بالذاكـرة.. لصيانـة الأوردة...

كنـا قبـل ا لحـب أنييـن مسـتقلين لـكل منـا طبـاع ومميـزات وخبرات وذكريـات وانهزامـات وانتصـارات، وارتباطنـا لـن يلغـي ذلـك.. قـد نتنـازل.. قـد نتـوازن، لكـن يجـب دائمـا أن نحافـظ علـى مسـافة بيننـا حتـى لا نتصـادم.. فنصـدم.

الحـب يبـدأ بحـب الـذات، فمـن لا يحـب نفسـه، لـن يحـب الآخـر، وإن لـم تعتـن بنفسـك، فلـن تكـون لـك القـدرة ولا الطاقـة

للاهتمام بالآخر، وحتى تسعد الآخر، يجب أن تكون سعيدا، ففاقد الشيء لا يعطيه!

-ما أروع كلامك.. وما أجمل فكرك..! هي تظن أنني ملك لها.. لعبة تتسلى بها متى شاءت، وترميها أنَّى شاءت.. تريد أن تضع في رقبتي حلقة، وتجرني كما تجر ذلك «الكانيش» الذي ينام في حضنها كل ليلة، بينما أنام أنا في حضن وسادة..!

عاد إلى البيت.. كانت مستلقية تشاهد التلفاز.. لم تأبه له.. جلس قربها، وكلما نبس ببنت شفة، قالت له: أصمت! أريد سماع الحصة..

قال: أيوجد عشاء؟

-الثلاجة فيها أجبان وزيتون ولحوم باردة.. اعمل «سندويشا» ونم خفيفا..

- لمَ تزوجتني.. لمَ؟

ظلت ساكتة، وهو يزداد حنقا لتجاهلها له وعدم ردها على سؤاله.. صرخ: أجيبي.. أجيبي..!

صرخت: كان تحدٍ ورهانا راهنت عليه الزميلات، وفزت بالرهان.

-ماذا؟!

-أجل كنت خجولا مؤدبا، وكانت تحبك، وتريدك، وأنا قررت أن آخذك، وراهنتها على ذلك.. و فزت بك.

-عمن تكلمين؟ عن (زهرة)؟ ما أغباني! فعلا كنتما سكرتيرتان لي و...

-وماذا؟ ها.. ماذا؟ أنا صرت زوجة صاحب المصنع، وشريكته، وهي بقيت.. و ستبقى سكرتيرة وضيعة.

رمقها بنظرة ازدراء، وفزّ واقفا .

-إلى أين ؟

-لن أعيش بقية عمري مكافأة رهان يا مولاتي.. أنت طالق.. طالق.. طالق..

كانت زهرة جالسة في المرج وبطنها يحمل أملا جديدا، قال الطيب أنه توأم جميل؛ بنت وولد.. كان هو يجمع باقة من الأقحوان وشقائق النعمان.. مرت هي تنزه كلبها «الكانيش».. رمقتهما باستعلاء، وقالت :

-أصبح ذوقك منحطا فبعد أن كنت تحتفي بالأوركيد، صرت تجمع شقائق النعمان.

- أصبحتُ أفضل الأزهار البرية لأنها جميلة وهشة وبسيطة ومتواضعة ووفية لحضن منبتها وأصلها.. حساسة

ومعطـاءة، وتفضـل المـوت علـى أن تعيـش خـارج أرضهـا.. ليس كالأوركيـد المغـرور المتكـبر المفاخـر بنوعـه، الخـارج عـن التقاليـد.. زهـور تتمتـع بالجمـال والغرابـة في نفـس الوقـت، لا وفـاء لهـا فقـد تجدهـا على ضفـاف الأنهـار أوفي الغابـات، وتعيـش أيامـا حتـى داخـل مزهريـة زجاجيـة..

اليتيم

كان يزمجر جارا وراءه شكلا مقعرا إلى المصعد الكهربائي.. كان ذلك الشكل المقوس عجوزا عديم الأمل أثقلت كاهله خطى الأيام والسنين العجاف.. سنين الجمر أكلت لحمه ووهّنت عظمه، و غيرت خارطة جسمه بحفر الأخاديد العميقة ونحت التجاويف.. هذا الشبح الشاحب الهزيل المرتعش من ألم الباركنسون، المتعب من تلاطم أمواج الزمن وتخبطات الأيام وتقلبات المناخ.. كم عصفت

بـه الزوابـع، وتراقصـت علـى ظهـره الأشـجان.

هـذا الـذي كان شـجرة شـامخة لا تهزهـا الريـاح.. زيتونة عتيقة فروعهـا ضاربـة في السـماء و جذورهـا ثابتـة في أعمـاق الأرض.. هـذا الـذي كانـت تضـرب جذعـه فـأس مـن فـولاذ فتكسـر..

أكلـوا رطبـه جنيـا، ورمـوه جذعـا خاويـا مـن كل شـيء إلا مـن غصتـه والتناهيـد.. إنـه اليـوم مهمـوم مذمـوم.. لاحـول لـه و لا قـرار.. رأسـه حبلـى بالهواجـس والتسـاؤلات: إلـى أيـن يجرّونـه في سـاعة كهـذه كالكبـش إلـى المذبـح.. كالمحكـوم إلـى سـاحة الإعـدام؟ مـا وزره؟ أي ذنـب اقترفـت يـداه إلاّ أنـه يومـا قـد وهـب الحيـاة لمـن سيسـحبها منـه، ويرميـه إلـى هامشـها وينسـاه في رف مهمـل مـع الأشـياء القديمـة يمـلأه الغبـار، وتغشـاه الوحشـة الرهيبـة.. ويزيحـه عـن بقعـة الضـوء إلـى الركـن المظلـم مـن الخشـبة..؟!

هـا هـي المسـرحية قربـت مـن النهايـة، وستسـدل السـتارة السـوداء دون تصفيـق، وسـيحال مجـبرا علـى التقاعـد، ولـن يكـون لـه بعـد اليـوم لا دور بطولـة ولا حتـى دور «كومبـارس» بائـس.. لـن يكـون حتـى متفرجـا! وهـو الـذي كان بالأمـس الكاتـب والمخـرج ..

كانـت السـيارة تجـري بسـرعة في تواطـئ خبيـث مـع مـن

يقودها لإيصاله للمستقر المراد.. سأل بصوت متحشرج كمن يصعد في السماء: إلى أين نمضي يا ولدي ؟

لكن ذاك الذي كان هواه وسلواه ومنتهى مناه لم يجب لأن سماعة سوداء سدت منافذ أذنيه، وموسيقى شيطانية عابثة منعت عنه المسمع.

في الرواق الرمادي استقبله شخص بملامح قاسية.. ملامح من تعوّد رؤية كل أشكال الدمار، فاكتسب مناعة ضد التأثر والتفاعل، قال بصوت خشن مستعجل كمن تسلم بضاعة يريد ركنها في مكانها المخصص و يستعّد لاستلام أخرى: سريرك يا الشيخ..

استدار للوراء يستجدي عطف الزمان علّ الدهر يحن ويغير قراره الجبري الظالم، لكن الدهر كان قد مضى مسرعا كعادته غير عابئ بمن يُسحق تحت عجلاته من ضحايا فالموت عندما يأتي يختطف فريسته ويمضي غير عابئ ببكاء الأيتام و نواح الثكالى والأرامل.. يئس من أمل العودة.. فقد ضُرِب برزخٌ بينه وبين الحياة، ولا مجال للعودة.. لقد منحه الدهر شهادة وفاة سابقة عن أوانها بدل شهادة التقدير التي طال انتظارها ..!

استدار ليلقي نظرة على مثواه الأخير، فرأى أباه جالسا

على ذلك السرير الصدئ والأفرشة البالية في نفس الغرفة الحزينة من دار المسنين الكئيبة ..!

ليس اليتيم من فقد أمه أو أباه، وإنّما من تخلى عنه وَلَدُه...

الجزّار

كانت في المرعى مع باقي الأبقار عندما جرّها بعنف، وحبسها في الإسطبل فارضا عليها مضاجعة ثور هولندي ضخم لتهجين سلالة ثيران المستقبل، وتحسين نوعها.

اغتصبها ذلك الثور العنيف رغم أنها كانت تفضل ثورا من ثيران المرعى .

حبلت رغما عنها، ووضعت عجلا جميلا لكنهم لم يعتقوها.. ما زالوا يواصلون استعبادهم لها، وعنفهم معها..

غيـروا ريجيـم أكلهـا، فحرموهـا مـن الأعشـاب التـي تحـب وفرضـوا عليهـا لائحـة طعـام جديـدة تسـاعد في إدرار الحليـب، وتحسـين مذاقـه.. كانـوا يحرمـون صغيرهـا الشّـرِه مـن الشـبع، وبعـد شـربه بضـع قطـرات يأخـذون الحليـب ليشـربوه، ويبيعـوا مـا فـاض منـه ليشـتروا بثمنـه مـا لـذّ وطـاب لأطفالهـم ...

كانـت منبسـطة في الإسـطبل تداعـب صغيرهـا بلسـانها عندمـا فتـح البـاب.. وجِلَـت لأنهـا ظنـت أنهـم جـاؤوا ليحملـوا صغيرهـا لينـام بعيـدا عـن حضنهـا كمـا يفعلـون كل ليلـة حتـى لا يرضـع حليبهـم.. لكـن ظنهـا قـد خـاب هـذه المـرة، فهـم لـم يلمسـوا الصغيـر بـل جرّوهـا هـي.. جزعـت، وتوجّسـت شـرا.. تثبتـت بـالأرض وأحسـت بفـراق ولدهـا..

بـدأ الفـلاح يجرهـا و زوجتـه تضربهـا بعصـى غليظـة كـي تجبرهـا على المشـي حتـى أدميـا ظهرهـا وقوائمهـا وهـي متشـبثة بـالأرض لا تريـد الحـراك صارخـة..

-لعنة الله عليك.. بقرة جموح ـ قال ـ

رقرقـت الدمـوع في عينيهـا، وكان خوارهـا عويـلا يشـق القلب شـقا.. أجبروهـا على ركـوب الشـاحنة، وأغلقـوا البـاب الحديديّ عليهـا.. أيقنـت ألاَّ مفـر لهـا، وأنهـا لـن تـرى ذلـك الصغيـر بعـد اليـوم، فقـد وقـع حكـم القـوي على الضعيـف.. والبقـاء للأقـوى!

بعد انتهاء مراسيم الذبح والسلخ والتقطيع، عَرض اللحم للبيع في جزارته، وأخذ ألذ وأغضّ قطعة لبيته.. شوت زوجته اللحم وعند الأكل وجدوه جافا.. قاسيا.. وبلا طعم، قالت امرأته: لحمها قاس رغم أنها فتية، ردّ ضاحكا: ربما لأنني قد ضربتها وعنّفتها قبل الذبح.. هههههها.. يقولون إن الهولنديين والأستراليين والكنديين يعزفون الموسيقى للبقر، ويداعبونه قبل الذبح، فيكون لحمه غضا طريا.. هههههههه..

... وعسى

قضى الليلة ساهرا يراجع استعدادا لامتحان تخرّجه.. لم ينم إلا سويعات واستفاق مبكرا على غير عادته، فأول ما يهاجمه القلق في الإنسان النوم، كأن الإنسان عند القلق يريد البقاء يقظا ليحرس حياته ووجوده من أي هجوم أو سطو قد يكون حاجزا بينه و بين تحقيق مراده، في حالة الحزن أو القلق، تعطي النفس أوامر للدماغ بألاَّ ينام، فلا يفعل.. و إن غفت عينيه بعض الوقت، ستوقظه برجفة أو هزة أو كابوس..

انطلق يحث الخطى نحو جامعته يغذّيه الأمل بغد أفضل، وترفرف فوق رأسه يمامات الفرح.. تعده بمستقبل زاهر، وخير آت.. ظل طول الطريق يخطط لمستقبله؛ سيجتاز هذا الامتحان الصعب وبعدها سينجح.. سيحصّل شهادته كمهندس كيمياء.. أكيد سيحصل على وظيفة لائقة بمرتب مقبول، وسيستأجر شقة صغيرة، ويتزوج حبيبته.. وهي أستاذة ستساعده على الحياة، ومهما ستكون حياته فلا شك أنها ستكون أفضل من حياته تحت سيطرة زوجة أبيه وتسلطها و نميمتها لأبيه... مما جعل جو البيت لا يطاق.. أصبح البيت بؤرة اختناق شح فيها الماء والهواء، ولم تعد صالحة للحياة .. لكن كلما تذكر ذلك الحلم المرعب بأنه وقع في بئر مظلمة، انقبض قلبه وضاق نَفَسه .

تذكر أمه.. فلو كانت على قيد الحياة لفرحت كثيرا بنجاحه..

ظلت هذه الأفكار تميل به ذات اليمين وذات الشمال وهو ساهم شارد الذهن.. قطع الطريق، إذْ بجسم ضخم يرتطم به..

أفاق.. كان أهله محيطون به، والطبيب يقول له: حمدا لله على السلامة..!

رد: أيّة سلامة ورجلي مكسورة، والسنة الدراسية قد ضاعت؟!

قال الطبيب: وعسى أن تكرهوا شيئا...

-وما الخير فيما حدث لي..؟ ما الخير ؟! فلْنكن واقعيين، ولْنَتْرك الكلام المخدر المفرغ من أيّ معنى..

قال الطبيب وهو يناوله جريدة: اقرأ هذا الخبر على الجريدة لعلّه يغير كل معتقداتك ...

صبيحة الخامس من جوان 2015 جامعة (...) تعيش فاجعة كبرى.. نفْس إرهابية عابثة ملغمة تنفجر مودية بحياتها.. وحياة جمع كبير من طلبة معهد الكيمياء الصناعية.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون ...

جحظت عيناه، واختلطت عليه المشاعر بين فرح خجول لنجاته، وحزن دفين عمّن قضى من زملائه.. لم يجد إلا أن يقول: الحمد لله.. الحمد لله.. سبحان الله.. سبحاااااااان الله..!

شرفة الأمل

وقفت على شرفة الأحلام تناجي الأمل، وتغزل من خيوط الفجر أطواق الفرح والرجاء المعجون بعصارة روحها السليبة، ووجدانياتها الكئيبة، والحزن العتيق الساكن بين أضلاعها الغريبة منذ غاب عنها ذلك الفارس المنتظر الذي رماها بسهم حب، فسدد وأصاب مركز كونها، ومحرق روحها..

غار الجرح وتعفن ونزف ألما ووجعا لن يبرأ إلا بحضور

بلسمها وتوأم روحها المستتر بين ثنايا القدر/ القدر الموكل بقتل الأحلام، وإجهاض الأمل.. القدر الذي نفى عنها الوطن، وتركها شريدة تحبو على سطح الشوق المزروع شوكا، وتتجرع كل يوم قطرات العلقم ومرارة الإنتظار والنظر للشفق.. لعلَّ الزمن عليها يشفق، والأيام بها ترفق، فترشي الحرب لتتوقف وتعيده لها بالسلام مرفق، ففي كل حياة جديدة، وفي نفس الساعة الكونية المعتادة للقياه تقف هناك تترقب عودته وأملا جنينا لرؤياه، فتتراءى لها أطيافه في وجه القمر وعيون النجوم وحفيف الشجر، وتأتيها الريح بصدى صوته وحروف اسمه، وتسمع ضحكته في صوت البلبل الشادي وهدير الوادي، وتشم عطره في شذى الياسمين وأريج الرياحين والزنبق الحزين وورد البساتين.. فهل ستحنو السنين و تعيده إليها و هو من سكن حبه قلبها، وجرى هواه مجرى الهواء في رئتيها، والدمع في مقلتيها، وهو أقرب لها من حبل الوريد.. أم ستمطرها الأيام تهديدا ووعيدا، ولن تعرف لها بعد اليوم عيدا..!؟

هل سيزف لها عريسا، أم شهيدا؟؟ هل ستحتضنه مخضبا بالحناء، أم سيحتضنه القبر مخضبا بالدماء؟؟ وسَتُهْدَى في كلتا الحالتين زغاريد ففي وطنها يزف الشهيد والعريس بالزغاريد سواء.. بسواء..!

المُتحدية

نظرت لوجهها، كانت ستكون جميلة بشعرها الأشقر وعيونها الخضر لولا ...

لولا أنفها المشوه، لماذا خلقها الله بأنف مشوه، هل تعمد ذلك، ومن هي في هذا الكون العظيم حتى يتعمد تشويهها، وبأي ذنب فعل، هل أخطأ، هل كانت زلة خلق، لكنه الكمال فكيف يخطئ، أم أنه قانون الصدفة الغبي والعشوائية الخرقاء، من فعل؟؟؟

استفاقت من غيبوبتها على صوت أمها:

– هيا إلى الطاولة إنه وقت العشاء.

– قالت بتحد: سأشارك .

– الأم : و...

– هي: أنفي؟... سأعلمه ألا يتدخل فيما لا يعنيه .

كانت فوق الخشبة ترفع صوتها الشجي المتموج كتموج شعرها الغجري الطليق, تصدح بلحن آخاذ, لم تنجح أصوات الجمهور في إحباطها:

– إنزلي إنزلي.....، ضحك، تهكم، هذا أنف أم منقار... بل أنف معقوف، أين المكنسة؟... ها ها ها...

أحست بانقباض في صدرها وألم في قلبها... كادت تغادر... لكن صوتًا من الأعماق ناداها قائلا:

– لا لا.. لا ترحلي، واصلي غرّدي وحلّقي وعلّمي أنفك ألا يقف حاجزًا في كل طريق ...

ووسط المطر والعواصف استمرّ الصوت الملائكي يغرد وزاده الشجن جمالًا وحنانًا ...

وفجأة بدأت أصوات الاستنكار تهدأ وغشت الوجوه بسمات لطيفات، ونزلت من زوايا العيون دمعات يتيمات تأثرًا بكلمات الأغنية...

لم تصدق نفسها وكذّبت أدنيها...
أكيد هم لا يصفقون لها, هي واهمة...
لا، بل لها يصفقون... ولم تجد إلا أن تخرّ راكعة محيية إياهم ودموعها تنهمر على وجنتيها والورود تتساقط عليها من كل جهة .

حصان الخشب

غرفة الطفل بسيطة فارغة إلا من سرير معدني باهت اللون وأفرشة رثة وحصان خشبي مُلأ خدوشا وجروحا... قالت لزوجها:

– مسكين هو طفلي لا يمتلك إلا هذه اللعبة الوحيدة النتنة التي وجدتها مرمية أمام بيت أحدهم، ملّ بشاعة منظرها المقرف فرماها...

سمع الحصان كلامها فانقبضت نفسه وضاق صدره،

وتذكر حين جِيءَ به من دكان لعب راق، وكيف كانوا يحتفون به بداية ويلمعونه بمحلول خاص بالخشب وإن غيروا مكانه حملوه برفق...

ثم مرت الأيام به والسنون، فبدأ بريقه يخفت وجماله يبهت فأصبحوا يتركونه في الحديقة تتهاطل عليه أمطار الشتاء وتدفنه الثلوج وتحرقه شمس الصيف، وتلهو به يد الخريف, إلى أن قرروا رميّه في القمامة، ولم يمنحوه حتى فرصة توديع أصدقاء اللعب وصاحبه الطفل. وظل مرميًا تلفه القاذورات والخردوات، إلى أن مرّ هذا الرجل فحمله لبيته ونظفوه ومنحوه للطفل.

كان الطفل سعيدًا به يركبه يتمرجح بلطف يداعبه... لكن رغم معاملة الطفل الحسنة له إلا أنه كان تعيسًا، فهذا البيت خال من اللعب إلا منه وقد ملّ الوحدة، كما أن الغرفة باهتة لا صور ولا ألوان...

ذات يوم سمع الرجل يقول لزوجته:

– لقد قبلت في الوظيفة الجديدة والمرتب جيد والحمد لله.

– قالت: أول شيء نزين غرفة الطفل ونغير أثاثها، ونشتري له لعبا كثيرة .

– حاضر حبيبتي أكيد– قال .

فرح الحصان وانشرح صدره، أخيرًا سيعيش في غرفة جميلة وملونة وسيكون له أصدقاء أيضًا .

أصبحت الغرفة ملونة علقت عليها صورًا جميلة وغُيِّر السرير بسرير جميل فُرش بأفرشة ملونة، وامتلأت الغرفة بلعب جديدة فيل, سلحفاة, زرافة, غزالة..

كان حصان الخشب سعيدًا جدًا، أكيد سيصادق الفيل وستكون له أخيرًا حبيبة.... آيختار الزرافة أم الغزالة؟؟؟

أممم.....، الغزالة أجمل، لكن لا يهم جمال الشكل فجمال الروح أحسن وأبقى والأهم من كل ذلك الحب... فإن أحبته الغزالة كان بها, وإن أحبته الزرافة سيقبل.

غفت عينه فرأى نفسه في أحضان الغزالة يشبعها قبلًا وتشبعه همسًا، لكنه استيقظ فزعًا على يد تشده بعنف قائلة:

– هذه اللعبة القدرة لم يعد لها مكان هنا, وفتحت الموقد ورمته تلتهمه النيران وسط الحطب.

اختارت الأمومة

كان يتميز كل ما تبحث عنه المرأة من صفات:
حب جارف وعطاء وارف، حنان واهتمام بأصغر الصغائر وأبسط العواطف، يتغاضى عن العيوب ويمدح الحسنات...
اختلاف تام عن ذلك الذي يربطها به قدس مقدس... رجل متعجرف جامد كالحجر مادي حتى شويكات النخاع، الغزل جف من زمن والمدح بذور تحللت ولم تنتش، يكسر المشاعر ويحطم الأمل, يحبط الناجح ويضحك من الفاشل...

ملت حياتها معه، وربما ما جعلها تضعه تحت المجهر هو تعرفها على ذلك الصديق المغاير فالشيء بضده يُعرف ...

وما زاد من طموحها وأغراها بالثورة والتمرد هو وعده بمساعدتها على الشهرة وتحقيق حلمها بأن تصبح ممثلة مشهورة...

طال بها التفكير وتأججت أحلامها وأصبح التحقيق قاب قوسين أو أدنى... أعدّت حقيبتها بما خف وزنه وزاد ثمنه وقررت أن تلتحق بالحب وتلبس تاج النجاح والفرح...

قبّلت الطفلتين وأحكمت إغلاق النوافذ وخرجت، وما كادت تضع رجلها في أول السلم/ الهابط بها من أموماتها الصاعد بها نحو المجد/ حتى عادت لتغطي الطفلتين فهما تتعريان كثيرا بالليل.

خرجت وماكادت تفتح باب السيارة حتى خفق قلبها وعادت تجري:

– يا للهول، نسيت علبة دواء مسكن للصداع على طاولة المطبخ وقد تستيقظ إحدى البنتين قبل الأب وتلتهم الدواء بفضول طفوليّ نهمٍ...

هذه المرة ستخرج ولن تعود ثانية/ بالأحرى ثالثة/ فكل شيء على مايرام ...

بدأت أولى خيوط الشمس تتلصص عبر شقوق النافذة لتشي له بما حدث ويكون لها شرف السبق الوشائيّ.

فرك عينيه وتحسس مكان رفيقة السرير، ذهل كأن هاجسا ما أنبأه برحيلها/ خوصا وأنها هذه الأيام دائمة التهديد بالرحيل/ ... وزاد ذهوله بباب الخزانة المفتوح والأدراج الخاوية على حطبها.

قفز من مكانه وبدأ يبحث عنها كمن ضيّع بطاقة هويّته... مصيبة ليست في المطبخ، ولا الصالون، ولا الحمام، ولا بالمكتب... ولا... ولا...

صعد الدرج جاريًا نحو غرف الطابق الثاني وفتح باب غرفة نوم الفتاتين وابتسم ابتسامة ذات مغزى لا يعلمها إلا هو.

كانت هناك نائمة تتوسط البنتين وتحكم حضنهما وعلى وجهيهما ابتسامتين ملائكيتن وعلى خدها دمعة أزلية ....

غرفة النوم

- قالت: هل صحيح اشتريت غرفة نوم جديدة؟
- قال: أجل.
- قالت: وهل نحن في وقت مناسب لتغيير غرفة النوم .
- قال: آلاترين أنها أصبحت مهترئة وذلك السرير يئن كلما لمسه الجسد، أم فقدت حاسة السمع كغيرها من الحواس والأحاسيس؟
- قالت: لكن أنت تعلم أني لا أنام الليل من الألم ولم أعد

أتمكن من الوقوف على رجلي والطبيب ينتظر إجراء التحاليل وأشعة *السكانير*، زد على ذلك فهو يتوقع تدخل جراحي وثمنه بثمن الغرفة... أم تنتظر حتى تقطع رجلي؟

– قال: أغلقتي شهيتي عن غدائي كما أغلقتها عن أشياء أخرى بنواحك ونباحك المستمر/ ستقطع رجلي ستقطع.../ وإن كتب عليك قطع الرجل فما ذنبي أنا؟... سبحان الله .

وطفق يأكل تلك الدجاجة التي أمامه باذلا قصارى جهده في ألا يترك بها ولو ذرة, ثم رماها على الطاولة هيكلا عظميًا مقززًا، ودون أن يكلف نفسه غسل يديه أخرج سيجارة وراح يتفنن في حرقها وذرها رمادًا منثورًا .

– قالت: هاقد انتهيت، كلمني الآن... لا أريد تجديد غرفة النوم أريد علاج رجلي...

– قال: لا تريدين؟... لكن أنا أريد، امرأة أنانية تريدين كل شيء حسب رغبتكِ، ثم هل تظنين أن عروسًا بالثلاثين ستقبل الدخول على غرفة مهترئة كتلك؟!

حب يُحتضر

الساعة تشير إلى الصفر بتوقيت الفرح... الحمامة البيضاء مخضبة بالحناء تراقص القمر... وتمنّي نفسها بفجر جديد ستقتسم نسماته مع فارس ما سألته إن كان من عرب عجم أو غجر، ما سألته عن قبلته وقت ترتيل الغزل، هويته كتب فيها بشر ابن بشر...

دق الجرس وفتحت الباب كان ساعي الشؤم ينتظر... أسرعِ للوداع الأخير إنّ الحب يُحتضر... قهقه صوت وقال:

– هذا جزاء الحالمين في عالم يحرّم الحلم ...

قتلوه... أجل قتلوه، فقط لأنه على ملة غير ملّتها، على دين غير دينها... فقط لأنه بذرة نمت في غيرمناخها وبيئة تخلف عن بيئتها... قتلوه بل قتلوها ...

الضيعة الضائعة

ستمطرْ السماء شاحبة تنذر بكارثة... أطفال يلعبون غير عابئين بتهديدات القدر المتربص بالبشر... نظر للطفل اللاهي فوق الأرجوحة وقال:

- هيا إلى البيت يا ولدي .

نظر الطفل للوجه الكئيب بخوف واستغراب . وهزّ الرجل رأسه في حركة لايفقهها إلا هو، سقطت دمعة حزينة على خده المجعّد قبل أوانه، حاول مد يّده ليمسح على رأس الطفل

معتذرا... لكن الطفل ركض هاربًا...

وهو... وهو... تذكّر أخيرًا أن يده قد دفنت ذات فجيعة مع ابنه الوحيد تحت أنقاض بيتهم... في ضيعتهم الضائعة للأبد.

خشبة ومئزر وكفن

وضع يده يربت على الألم الساكن الفؤادَ من...

من زمن لم يعد يدري أكان مع بداية التأريخ أم قبله، داخل الصدرِ حياة أخرى شرعية قد حازت على الحكم الذاتيّ بعد الثورة الكبرى.

ثورة على كل شيء، على أعراف الطوطم وطقوس آبولو وسخافات آفروديت، ثورة عارمة، نار مضطرمة لهبٌ حوّل جسده الهزيل مهزلة تعكر صفو الناظرين كأنه خارج من صقر.

كان لا بذ أن يحصّن جسده بجدران فلينية عازلة لخروج الخواطر... كيف لا يفعل، وفي حظيرته الخاطر خطر والتساؤل جرم لا يغتفر... والأخ قاتل أخاه لاختلاف النظر... والذبح أسبق أنباء من الأجل...

أرادها ثورة لتحقيق الحرية، لكن بكل جبن أغتيلت القضية، ووجد نفسه مخيرًا بين خشبة ومئزر وكفن ...

الفهرس

امرأة من نار ٤
من يطفئ النار؟ ١٢
من الإكوِس إلى الأوراس ١٦
السفر إلى الهاوية ٢٠
كارولين تقرر الحياة ٢٥
حكاية أزلية ٣٣
الضحية ٣٥
إعدام ٣٩
كنزه الثمين ٤١
هي.. وهي ٤٤
ذاكرة الحلم ٤٦
الغربة امرأة ٤٩
طقوس فى الظلام ٥٣
الحطاب السادي ٥٧
بحيرة الرب ٥٩
زهرة الأوركيد ٦٧
اليتيم ٧٣
الجزار ٧٧

وعسى ٨٠
شرفة الأمل ٨٣
المُتحدية ٨٥
حصان الخشب ٨٨
اختارت الأمومة ٩١
غرفة النوم ٩٤
حب يُحتضر ٩٦
الضيعة الضائعة ٩٨
خشبة ومئزر وكفن ١٠٠